سُورَةُ الأَحْقَافِ[1]

مكية

وآياتها خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

حم : هذا أحدالحروف المقطعة يكتب هكذا: حمٓ ويقرأ هكذا: حَاميم.

تنزيل الكتاب : أي تنزيل القرآن.

من الله العزيز الحكيم : أي من لدن الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

إلا بالحق وأجل مسمًّى : أي ما خلقنا السموات والأرض إلا خلقا متلبسا بالحق وبأجل مسمى لفنائهما.

(١) وجه تسميتها بالأحقاف لذكر لفظ الأحقاف فيها ولم يكن لها اسم غيره والأحقاف جمع حقف بكسر الحاء وسكون القاف الرمل المستطيل الكبير.

عما أنذروا معرضون : أي عن ما خوفوا به من العذاب معرضون عنه غير ملتفتين إليه.

ما تدعون من دون الله : أي من الأصنام والأوثان.

أروني ماذا خلقوا من الأرض : أي أشيروا إلى شيء خلقوه من الأرض.

أم لهم شرك في السموات : أي أم لهم شركة.

أئتوني بكتاب من قبل هذا : أي منزل من قبل القرآن.

أو اثارة من علم : أي بقيةٍ من علم يؤثر عن الأولين بصحة دعواكم في عبادة الأصنام.

إن كنتم صادقين : أي في دعواكم أن عبادة الأصنام والأوثان تقربكم من الله تعالى.

من لا يستجيب له إلى يوم القيامة : اي لا أحد أضل ممن يدعو من لا يستجيب له في شيء يطلبه منه أبداً.

وهم عن دعائهم غافلون : أي وهم الأصنام أي عن دعاء المشركين إياهم غافلون لا يعرفون عنهم شيئاً.

وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء : أي في يوم القيامة كانت الأصنام أعداء لعابديها.

وكانوا بعبادتهم كافرين : أي وكانت الأصنام بعبادة المشركين لها جاحدة غير معترفة.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿حمٓ﴾ الله أعلم بمراده به إذ هذه من المتشابه الذي يجب الإيمان به وتفويض أمر معناه إلى الله منزله. وقوله ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ أي تنزيل القرآن الكريم من لدن الله العزيز الحكيم العزيز في ملكه الحكيم في صنعه وتدبيره. وقوله تعالى ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما﴾ من العوالم والمخلوقات ﴿إلّا بالحق﴾ أي إلّا لِحِكَمٍ عالية وليس من باب العبث واللعب، وإلّا بأجل مسمى عنده وهو وقت إفنائهما وانهاء وجودهما لاستكمال الحكمة من وجودهما. وقوله تعالى ﴿والذين[1] كفروا عما انذروا معرضون[2]﴾ يخبر تعالى بأن الذين كفروا بتوحيد الله ولقائه وآياته ورسوله عما خوفوا به من عذاب الله المترتب على كفرهم وشركهم معرضون غير مبالين به، وذلك لظلمة نفوسهم، وقساوة قلوبهم. وقوله تعالى ﴿قل أرأيتم[3] ما

---

(١) هذه الجملة حالية فهي في موضع نصب حال من الضمير المقدر في متعلق الجار والمجرور في قوله: (بالحق) والمقصود من الإخبار هو التعجيب من إعراض الكافرين عن دعوة الحق التي يُدعون إليها وهي: الإيمان والعمل الصالح بعد ترك الشرك، والمعاصي لنجاتهم وسعادتهم.

(٢) (عمّا أنذروا) جائز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف أي: أنذروه وجائز أن تكون مصدرية أي: عن إنذارهم معرضون.

(٣) (قل أرأيتم): الاستفهام تقريري هو بمعنى: أخبروني، وفعل أروني للتعجيز لإبطال دعوى الشرك بالله تعالى، والعاجز عن خلق شيء كيف يستحق العبادة، والتأليه، و(ماذا خلقوا) هو بمعنى ماذا الذي خلقوا أي: أي شيء خلقوه.

تدعون من دون الله﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي من شيء ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ولو أدنى شرك وأقله، وقوله ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم﴾ أي بقية من علم تشهد[1] بصحة عبادة ودعاء آلهة لم تخلق شيئا من الأرض وليس لها أدنى شرك في السموات ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أنها آلهة تستحق أن تُعبد. وقوله تعالى ﴿ومن[2] أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ ينفي تعالى على علم تام أنه لا أضل من أحد يدعو من غير الله تعالى معبوداً لايستجيب له في قضاء حاجة أو قضاء وطر مهما كان صغيراً أبداً وحقا لا أحد أضل ممن يقف أمام جماد لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق يدعوه ويسأله حاجته وقوله ﴿وهم عن دعائهم[3] غافلون﴾ أي وأولئك الأصنام المدعوون غافلون تماما عن داعيهم لا يعلمون عنه شيئا لعدم الحياة فيهم، ولو كانوا يوم القيامة يُنطقهم الله ويتبرءون ممن عبدوهم ويخبرون أنهم ما عبدوهم ولكن عبدوا الشيطان الذي زين لهم عبادتهم، وهو ما دل عليه قوله تعالى ﴿وإذا حشر الناس﴾ أي ليوم القيامة كانوا لهم[4] أعداء وخصوماً وكانوا بعبادتهم من دعاء وذبح ونذر وغيره كافرين أي جاحدين غير معترفين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- إثبات النبوة المحمدية بتقرير أن القرآن تنزيل الله على رسوله المنزل عليه وهو محمد ﷺ

٢- انتفاء العبث عن الله تعالى في خلقه السموات والأرض وما بينهما وفي كل أفعاله وأقواله.

٣- تقرير حقيقة علمية وهي من لا يخلق لا يُعبد.

٤- بيان أنه لا أضل في الحياة من أحد يدعو من لا يستجيب له أبداً كمن يدعون الأصنام والقبور والأشجار بعنوان التوسل والاستشفاع والتبرك.

---

(١) (من علم) أي: من أهل العلم السابقين غير مكتوبة في الكتب، وهذا التوسيع عليهم في أنواع الحجج ليكون عجزهم بعد ذلك أقطع لحجتهم وإبطال دعواهم في الشرك. ذكر القرطبي عند تفسير: (أو أثارة من علم) أن بعضهم فسر الأثارة: بالخط، وإن نبيا كان يخط، والمراد التعرف إلى علم الغيب، وختم القول بكلمة لابن العربي انهى بها الموضوع، إذ قال: إن الله تعالى لم يبق في الأسباب الدالة على الغيب إلا الرؤيا إذ هي جزء من النبوة، والفأل الحسن لا غير وأنشد لبعضهم:

الفال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

(٢) الاستفهام للإنكار والتعجب معاً، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعون.. الخ.

(٣) الجملة حالية، وجملة: (وإذا حشر الناس) معطوفة عليها.

(٤) فالعابدون كالمعبودين سواء في التبرؤ من بعضهم بعضا يوم القيامة وإعلان العداء لبعضهم بعضاً.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات : أي أهل مكة من كفار قريش، والآيات آيات القرآن والبينات الواضحات.

قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : أي من كفار قريش للحق أي القرآن لما قرأه عليهم رسول الله ﷺ.

هذا سحر مبين : أي قالوا في القرآن سحر مبين أي ظاهر لما رأوا من تأثيره على النفوس.

أم يقولون افتراه : أي بل أيقولون افتراه أي اختلقه من نفسه.

قل إن افتريته : أي قل لهم يانبينا إن اختلقته من نفسي.

فلا تملكون لي من الله شيئا : أي فأنتم لا تملكون لي من الله شيئا إن أراد أن يعذبني.

هو أعلم بما تفيضون فيه : أي هو تعالى أعلم بما تخوضون فيه من القدح والطعن فيَّ وفي القرآن.

كفى به شهيداً بيني وبينكم : أي كفى به تعالى شهيدا بيني وبينكم.

ما كنت بدْعاً من الرسل : أي لم أكن أول رسول فأكون بدعا من الرسل بل سبقني رسل كثيرون.

وما أدري ما يفعل بي ولا بكم : أي في هذه الحياة هل أخرج من بلدي، أو أُقتل، وهل

تُرجمون بالحجارة أو يُخسف بكم.

إن أتبع إلا ما يوحى إليّ : أي ما أتبع إلا ما يوحيه إليّ ربي فأقول وأفعل ما يأمرني به.

وما أنا إلا نذير مبين : أي وما أنا إلا نذير لكم بين الانذار.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في دعوة العرب عامة وقريش خاصة إلى الإيمان والتوحيد فإذا قرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن دعوة لهم إلى الإيمان والتوحيد قالوا ردّاً عليه ما أخبر به تعالى في قوله ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ أي على كفار قريش ﴿آياتنا بيّناتٍ﴾ أي ظاهرات الدلالة واضحات المعاني ﴿قال الذين كفروا﴾ بالله وبرسوله ولقائه وتوحيده قالوا ﴿للحق[1]﴾ وهو القرآن ﴿لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ بل قالوا ما هو أشنع في الكذب وأبشع في النظر إذ قالوا ما أخبر به تعالى عنهم في قوله ﴿أم يقولون[2] افتراه﴾ أي بل أيقولون افتراه أي اختلقه وتخرصه من نفسه وليس هو بكلام الله ووحيه إليه. وقوله تعالىٰ ﴿قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي علىٰ فرض أنني افتريته علىٰ الله وقلت أوحيَ إليّ ولم يُوحَ إليَّ وأراد الانتقام مني بتعذيبي، فهل أنتم أو غيركم يستطيع دفع العذاب عني، وعليه فكيف أعرِّض نفسي للعذاب بالافتراء علىٰ الله تعالىٰ، فهذا لن يكون مني أبداً. وقوله تعالىٰ ﴿هو أعلم بما تفيضون[3] فيه﴾ أي الله جل جلاله هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه مندفعين في الكلام تطعنون فيَّ وفي القرآن فتقولون فيَّ ساحر وفي القرآن سحر مبين وتقولون فيَّ مفترٍ وفي القرآن افتراء إلى غير ذلك من المطاعن والنقائص. ﴿كفي به شهيدا بيني وبينكم[4]﴾ أي كفى بالله شهيدا عليَّ وعليكم فيما أقول وفيما تقولون وسيجزي كلا بما عمل ﴿وهو الغفور الرحيم[5]﴾ لمن تاب فتوبوا إليه يغفر كفركم وخوضكم في الباطل ويرحمكم فإنه تعالى غفور لمن تاب رحيما بمن آمن وأناب. وقوله تعالى في الآية (٩) ﴿قل ما كنت بدعاً[6] من الرسل﴾ يأمر تعالى رسوله أن

---

(١) (للحق) اللام تعليلية. وليست للتعدية، أي: قال الكافرون بعضهم لبعض لأجل رد الحق وإبطاله، هذا سحر مبين، والحق: القرآن، يصفونه بالسحر حتى لا يؤمنوا به.

(٢) (أم) هي المنقطعة المقدرة ببل، والاستفهام أي: أيقولون افتراه والاستفهام وبل للإضراب الانتقالي من نوع إلى آخر من أنواع ضلالهم، والاستفهام للنفي والإنكار معاً.

(٣) (تفيضون فيه) أي: من قول الباطل والخوض في تكذيب الحق، إذ الإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع، ومنه: أفاضوا في الحديث: إذا اندفعوا يقولون، وأفاض الناس من عرفات إلى مزدلفة، أي: اندفعوا.

(٤) إذ هو يعلم صدقي ويعلم أنكم مبطلون.

(٥) الغفور لمن تاب من عباده الرحيم بالمؤمنين.

(٦) البدع: الأول: والبديع كالبدع بكسر الباء مثل: نصف ونصيف، وأبدع في كذا أتى بالبدع فيه أي بما لم يأت به غيره، والبديع: صفة مشبّهة، وهو من أسماء الله تعالى، ومعناه: خالق الأشياء ومخترعها.

يقـول لأولئـك المشـركين المفيضين في الطعن في القرآن والرسول في أغلب أوقاتهم وأكثر مجالسهم ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي ما أنا بأول عبد نُبئ وأُرسل فأكون بدعاً في هذا الشأن فينكر عليَّ أو يستغرب مني بل سبقتني رسل كثيرة. وقوله ﴿وما أدري ما يُفعل بي[1] ولا بكم﴾ أي وقل لهم أيضا أني لا أدري وأنا رسول الله مايفعل بي مستقبلا فهل أخرج من هذه البلاد أو أُقتل أو تقبل دعوتي وأنصر ولا ما يُفعل بكم من تعذيبكم بحجر أو مسخ أو هدايتكم ونجاتكم. وقوله ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ وما أنا إلاّ نذير مبين﴾ أي ما اتبع إلاّ الذي أوحى إليَّ ربيّ باعتقاده أو قوله أو عمله، فلا أُحدث ولا أبتدع شيئا لم يوح الله به ابداً ﴿إن أنا إلاّ نذير مبين﴾ أي ما أنا بالذي يملك شيئا لنفسه أو لغيره من خير أو ضير وإنما أنا نذير من عواقب الكفر والتكذيب والشرك والمعاصي فمن قبل إنذاري فكف عما يسبب العذاب نجا، ومن رفض إنذاري فأمره إلى ربيّ إن شاء عذبه وإن شاء تاب عليه وهداه ورحمه.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(١) هذا ردّ على المتعنتين من المشركين الذين يطالبون الرسول ﷺ بما لم يكن في وسعه من أمور الغيب، وليس معناه كما قيل: إنه لا يدري هل يكون بعد موته في الجنة أو في النار، ولا يدري هل يكون المشركون في النار أو الجنة، إذ هذا قول باطل. وأما حديث عثمان بن مظعون في البخاري (فإنه لما قالت المرأة رحمة الله عليك يا أبا السائب إن الله أكرمك فقال لهـا: وما يدريك أن الله أكرمه فإني وأنا رسول الله لا أدري ما يفعل بي) فإن المراد منه عدم الجزم بمصير من مات من المسلمين ووجوب تفويض الأمر إلى الله تعالى.

شرح الكلمات:

قل أرأيتم : أي أخبروني ماذا تكون حالكم.

إن كان من عند الله : أي إن كان القرآن من عند الله.

وكفرتم به : أي وكذبتم به أي بالقرآن.

وشهد شاهد من بني اسرائيل : أي وشهد عبدُالله بن سلام.

على مثله فآمن : أي عليه إنه من عند الله فآمن.

واستكبرتم : أي واستكبرتم أنتم فلم تؤمنوا ألستم ظالمين.

لو كان خيرا ما سبقونا إليه : أي لو كان ما جاء به محمد من القرآن والدين خيرا ما سبقنا إليه المؤمنون.

وإذ لم يهتدوا به : أي بالقرآن العظيم.

فسيقولون هذا إفك قديم : أي هذا القرآن إفك قديم أي هو من كذب الأولين.

وهذا كتاب مصدق : أي القرآن مصدق للكتب التي سبقته.

لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا : أي حال كونه بلسان عربي لينذر به الظالمين المشركين.

وبشرى للمحسنين : وهو أي القرآن بُشرى لأهل الإحسان في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم.

ثم استقاموا : أي فلم يرتدوا واستمروا على فعل الواجبات وترك المحرمات.

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون: أي في الدنيا وفي البرزخ وفي عرصات القيامة.

بما كانوا يعملون : أي جزاهم الله بما جزاهم به بنفي الخوف والحزن عليهم بأعمالهم الصالحة وتركهم الأعمال الفاسدة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في طلب هداية قوم النبي ﷺ من قريش الذين ردوا الدعوة وقالوا في كتابها سحر مبين وفي صاحبها مفترٍ فقال تعالى لرسوله قل يا محمد لأولئك المشركين الذين قالوا في القرآن سحر مبين ﴿أرأيتم[1]﴾ أي أخبروني ماذا تكون حالكم إن كان القرآن من عند الله. وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل وهو عبدالله بن سلام على[2] مثله أي على التوراة أنها نزلت من

---

(١) الاستفهام تقريري للتوبيخ، ومفعولا (رأيتم) محذوفان تقديرهما: أنفسكم ظالمين.

(٢) المثل: المماثل أي: المشابه في فعل أو صفة، وضمير مثله: عائد على القرآن، وجائز أن يكون المراد بالمثل: التوراة، والشاهد هو موسى عليه السلام أو عبدالله بن سلام كما في التفسير، وجائز أن يكون لفظ (مثل) مقحماً زائداً نحو: (ليس كمثله شيء) أي: ليس مثله شيء، ويكون المعنى. وشهد شاهد ـ وهو عبدالله بن سلام ـ على صدق القرآن وكونه وحي الله أوحاه إلى رسوله ﷺ.

عند الله وهي مثل القرآن فلا يستنكر أن يكون القرآن نزل من عند الله لا سِيَّمَا والكتابان التوراة والقرآن يصدق بعضهما بعضاً، بدلالتهما معاً علىٰ أصول الدين كالتوحيد والبعث والجزاء بالثواب والعقاب ومكارم الأخلاق والعدل والوفاء بالعهد. ﴿فآمن﴾ هذا الشاهد[1] ﴿واستكبرتم﴾ أي وكفرتم أنتم مستكبرين عن الإيمان بالحق ألم تكونوا شر الناس وأظلمهم وتحرمون الهداية إن الله لا يهدي القوم[2] الظالمين أي الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فحرموها الهداية الإلهية وقوله تعالى في الآية (١١) ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ هذا القول جائز أن يقوله يهود المدينة للمؤمنين بها، وجائز أن يقوله المشركون في مكة وفي غيرها من العرب إذ المقصود هو الاعتذار عن عدم قبول الإسلام بحجة انه لا فائدة منه تعود عليهم في دنياهم ولا خير يرجونه منه إن دخلوا فيه إذ لو كان فيه ما يرجون من الفوائد المادية لاعتنقوه ودخلوا فيه ولم يسبقهم إليه الفقراء والمساكين. وهو معنى ما أخبر تعالى به عنهم في قوله ﴿وقال الذين كفروا للذين[3] آمنوا﴾ أي في شأن الذين قالوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقونا[4] إليه فآمنوا وكفرنا. وقوله تعالى ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي وإن ظهر عنادهم وعظم عتوهم واستكبارهم فعموا فلم يهتدوا بالقرآن فسيقولون[5] ﴿هذا إفك قديم﴾ وقد قالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ومعنى إفك قديم كذب أفكه غير محمد وعثر عليه فهو يقول به ما أفسد هذاالقول وما أقبحه وأقبح قائله.

وقوله تعالى ﴿ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة﴾ أي ومن قبل القرآن الذي أنكر المشركون نزوله كتاب موسى التوراة وقد أنزلناه عليه إماما يؤتم به فيقود المؤتمين به العاملين بهدايته إلى السعادة والكمال وأنزلنا اليوم القرآن هدى ورحمة وبشرى للمحسنين. وهو ما دل عليه قوله وهذا كتاب مصدق لما قبله من الكتب لسانا عربيا أي أنزلناه لسانا عربيا[6] لينذر به رسولنا المنزل عليه

---

(١) لاحاجة إلى أن نقول الشاهد هو موسى عليه السلام بحجة أن السورة مكية، وعبدالله بن سلام أسلم بعد الهجرة، إذ من الجائز أن تكون السورة مكية والآيات مدنية، وهو الحق في هذه والله أعلم.

(٢) الجملة تعليلية لما هو محذوف في الكلام وهو: ضللتم ضلالا لا يُرجى لكم هداية بعده، لأن الله لا يهدي القوم الظالمين.

(٣) اللام تعليلية أي: قالوا ما قالوه لأجل الذين آمنوا حتى يردوا دعوتهم ولا يقبلوا الإسلام.

(٤) ضمير (سبقونا) عائد إلى غير مذكور وأرادوا به المستضعفين مثل بلال وعمار ووالده وسميّة وزنيرة على وزن شرّيرة، وسكيرة: أمَةٌ رومية كانت من السابقات إلى الإسلام.

(٥) المضارع هنا مراد به سيديمون قولهم هذا كلما أرادوا رد القرآن: قالوا هذا إفك قديم.

(٦) كلمة (لساناً) فيها إيماء إلى انه عربي اللغة لا الأخلاق والعادات العربية والأحكام القبلية لأنها فسدت بالشرك وانقطاع الوحي وموت العلماء قروناً عديدة.

وهو محمد ﷺ لينذر[1] به الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي عذاب الله المترتب على تدسية النفوس بأوضار الشرك والمعاصي وهو بُشرى للمحسنين من المؤمنين الذين احسنوا النية والعمل بالفوز العظيم يوم القيامة وهو النجاة من النار ودخول الجنة وقوله تعالى ﴿إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا[2]﴾ بعد أن ذكر تعالى المبطلين وباطلهم عقّب على ذلك بذكر المحسنين وأعمالهم على نهج الترهيب والترغيب فأخبر تعالى أن الذين قالوا ربناالله أي آمنوا وصرحوا بإيمانهم وجاهروا به ثم استقاموا على منهج لا إله إلا الله فعبدوا الله بما شرع وتركوا عبادة غيره حتى ماتوا على ذلك هؤلاءَ يخبر تعالى عنهم أنهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة فهم آمنون في الحيوات الثلاث، وبشرهم بالجنة فأخبر أنهم أصحابها الخالدون فيها، وأشار إلى أن ذلك الفوز والبشرى كانا نتيجة أعمالهم في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح الذين دل عليها قوله ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- اعتبار الشهادة وانها أداة يتوصل بها إلى احقاق الحق وابطال الباطل فلذا يشترط عدالة صاحبها والعدالة هي اجتناب الكبائر واتقاء الصغائر غالبا.

٢- تقرير قاعدة من جهل شيئا عاداه، إذ المشركون لما لم يهتدوا بالقرآن قالوا هذا إفك قديم.

٣- بيان تآخي وتلاقي الكتابين التوراة والقران فشهادة أحدهما للآخر أثبتت صحته.

٤- وجوب تعلم العربية لمن أراد أن يحمل رسالة الدعوة المحمدية فينذر ويبشر.

٥- فضل الاستقامة حتى[3] قيل انها خير من ألف كرامة، والاستقامة هي التمسك بالإيمان والعبادة كما جاء بذلكالقرآن وبينت السنة.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ

---

(١) قرأ نافع (لتنذر) بالتاء الفوقية خطاب للرسول ﷺ وقرأ حفص (لينذر) بالياء أي: القرآن.

(٢) ثم للتراخي الرتبي، إذ الإيمان يحصل بالنظر والتأمل دفعة واحدة وأما الاستقامة فتحتاج إلى مراقبة النفس وذكر الوعد والوعيد في كل طاعة من فعل أو ترك.

(٣) روى مسلم والترمذي وغيرهما عن عبدالله الثقفي قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ (قل آمنت بالله ثم استقم).

أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات :

ووصينا الانسان بوالديه : أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإيصاء.

إحسانا[1] :أي أن يُحسن بهما إحسانا وهو المعاملة بالحسنى.

حملته أمه كُرها ووضعته كرها : أي حملته أثناء حمله في بطنها على مشقة وولدته كذلك على مشقة.

وحمله وفصاله ثلاثون شهرا : أي مدة حمله في بطنها وفطامه من الرضاع ثلاثون شهرا.

حتى إذا بلغ أشده : أي اكتمال قوته البدنيّة والعقلية وهي من الثلاث والثلاثين فما فوق.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك : أي ألهمني ووفقني أن أشكر نعمتك بصرفها فيما تحب.

وأن أعمل صالحا ترضاه : أي وبأن أعمل صالحا ترضاه مني أي تتقبله عني.

ونتجاوز عن سيئاتهم : أي فلا نؤاخذهم بها بل نغفرها.

في أصحاب الجنة : أي في جملة أصحاب الجنة وعدادهم.

وعد الصدق الذي كانوا يوعدون : أي في مثل قوله تعالى وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار الآية.

معنى الآيات :

إن الفرد كالجماعة فقد أوصى تعالى الإنسان بالإحسان بوالديه وببرهما في جميع كتبه وعلى ألسنة كافة رسله، والإنسان بعد ذلك قد يحسن ويبرُ وقد يسيء ويعُقُّ، فكذلك الجماعة والأمة من الناس يرسل إليهم الرسول فمنهم من يؤمن ومنهم من يكذب، ومنهم من يتابع ومنهم من يخالف فلما ذكر تعالى اختلاف قوم النبي ﷺ في الإيمان بما جاء به، والكفر به ذكر أن هذه حال

(١) قرأ نافع (حسناً) و (كرهاً) بفتح الكاف، وقرأ حفص (إحساناً) و(كرها) بضم الكاف.

الإنسان فقال تعالى ﴿ووصينا الإنسان﴾[1] أي جنس الإنسان أي أمرناه بما هو آكد من الأمر وهو الوصيّة بوالديه أي أمه وأبيه إحسانا بهما وذلك بكف الأذى عنهما وإيصال الخير بهما وطاعتهما في المعروف وبرهما أيضا بعد موتهما. فمن الناس من ينفذ هذه الوصية ومنهم من يهملها ولا ينفذها وقوله، حملته أمه كرها ووضعته كرها بيان لوجوب الإحسان بهما وبرهما إذ معاناة الأم وتحملها مشقة الحمل تسعة أشهر ومشقة الوضع وهي مشقة لايعرفها إلا من قاسى آلامها كالأمهات. وقوله ﴿وحمله[2] وفصاله ثلاثون شهرا﴾ بيان لمدة تحمل المشقة إنها ثلاثون شهرا بعضها للحمل وبعضها للإرضاع والتربية وقوله تعالى حتى إذا بلغ أي عاش حتى إذا بلغ أشده أي اكتمال قواه البدنية والعقلية وذلك من ثلاث وثلاثين سنة إلى الأربعين وبلغ أربعين[3] سنة قال أي الإنسان البار بوالديه المنفذ للوصية الإلهية كأبي بكر الصديق رضي الله عنه إذ بلغ الأربعين من عمره بعد البعثة المحمدية بسنتين. ﴿قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ﴾[4] وهي نعمة الإيمان والتوحيد والإسلام عليّ وعلى والديَّ إذ آمن وآمن أبواه أبو قحافة عثمان بن عامر التيمي وآمنت أمه أم الخير سلمى، وأولاده عامة من بنين وبنات ولم يحصل لأحد من الصحابه أن سأل ربه أن يدفعه دفعا إلهاميا وتوفيقا ربانيا لأن يشكر نعمة الله عليه وعلي والديه بالإسلام، وأن يدفعه كذلك إلى العمل الصالح الذي يرضاه الله ويتقبله عن صاحبه، وقد استجاب له ربه فأعتق تسعة أعبد مؤمنين من استرقاق الكافرين لهم منهم بلال رضي الله عنه، وقوله ﴿واصلح لي في ذريتي﴾ أي اجعل الصلاح ساريا في ذريتي حتى يشملهم جميعا وقد استجاب الله تعالى له فآمن أولاده أجمعون ذكورا وإناثا، وقوله ﴿إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ هذا توسل منه رضي الله عنه لقبول دعائه فقد توسل إلى ربّه بالتوبة من الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد، وبالإسلام إلى الله وهو الخضوع لله والانقياد لأمره ونهيه. وقوله تعالى ﴿أولئك الذين يتقبل عنهم أحسنَ[5] ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم﴾ فلا يؤاخذهم بها بعد توبتهم منها في جملة أصحاب الجنة إذ لا يدخل الجنة أحد إلا بعد مغفرة ذنبه، وقوله ﴿وعد الصدق﴾[6]

(١) روي من عدة طرق أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) وحمله وفصاله ثلاثون شهراً هذه الآية الكريمة مع قوله تعالى من سورة البقرة: (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) دلّتا على أن أقل مدة الحمل: ستة أشهر، فلا يثبت الحمل بأقل من ستة أشهر ويثبت بالستة والسبعة والثمانية والتسعة، فمن بنى بامرأة وولدت قبل ستة أشهر من البناء بها فالولد لا يلحق الزوج.

(٣) لِمَ خص الدعاء للوالدين في هذا الوقت بالذات؟ لأنه وقت يصبح فيه الولد مشغولا بزوجة وأولاد وتكاليف فهو في هذه الحال أحوج ما يكون إلى عون الله تعالى على بر والديه.

(٤) من بركة صلاح الذرية أن يدعو الولد لوالده بعد موته ففي صحيح الحديث: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له).

(٥) قرأ نافع: (يُتقبل) و(يتجاوز) بالبناء للمفعول، و(أحسن) مرفوع نائب فاعل، وقرأ حفص بنون المتكلم فيهما ونصب (أحسن) على أنه مفعول به.

(٦) الوعد: مصدر بمعنى المفعول كالرد بمعنى المردود.

أي أنجز لهم هذا لأنه وعد صدق وعدهم فأنجزه لهم، وقوله ﴿الذي كانوا يوعدون﴾ أي في الكتاب مثل قوله تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ وجوب البر بالوالدين بطاعتهما في المعروف والإحسان بهما بعد كف الأذى عنهما.

٢ـ الإشارة إلى أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر فأكثر، وأن الرضاع قد يكون حولين فأقل.

٣ـ جواز التوسل بالتوبة إلى الله والانقياد له بالطاعة.

٤ـ فضيلة آل أبي بكر الصديق على غيرهم من سائر الصحابة ما عدا آل بيت رسول الله ﷺ.

٥ـ بشارة الصديق وأسرته بالجنة، إذ آمنوا كلهم وأسلموا أجمعين وماتوا على ذلك.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

شرح الكلمات:

والذي قال لوالديه : الذي اسم موصول استعمل استعمال الجنس فدل على متعدد بدليل الخبر عنه وهو أولئك الذين حق عليهم القول.

أفٍ لكما : أي نتناً وقبحاً لكما.

أن أخرج : أي من القبر حيا بعد موتي.

وقد خلت القرون : أي مضت الأمم قبلي ولم يخرج منها أحد من قبره.

وهما يستغيثان الله : أي يطلبان الغوث برجوع ولدهما إلى الإيمان بعد الإلحاد والكفر.

ويلك آمن : أي يقولان له إن لم ترجع ويلك أي هلاكك أي هلكت آمن بالبعث.

إن وعد الله حق : وقد وعد العباد بالرجوع إليه ومحاسبتهم على أعمالهم ومجازاتهم بها.

فيقول ماهذا إلا أساطير الأولين : أي ما القول بوجود بعث للناس أحياء بعدالموت إلا أكاذيب الأولين.

أولئك الذين حق عليهم القول : أي وجب عليهم القول بالعذاب يوم القيامة.

في أمم قد خلت من قبلهم : أي في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس.

ولكل درجات مما عملوا : أي ولكل من المؤمنين البارين، والكافرين الفاجرين درجات مما عملوا درجات المؤمنين في الجنة ودرجات الكفار في النار.

أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا : أي يقال لهم أذهبتم طيباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الدنيا.

واستمتعتم بها : أي تمتعتم بها في الحياة الدنيا.

فاليوم تجزون عذاب الهون : أي جزاؤكم عذاب الهوان.

بما كنتم تستكبرون في الأرض : أي تتكبرون في الأرض.

بغير الحق : أي إذ لا حق لكم في الكبر والكبرياء لله، ولم يأذن لكم فيه.

وبما كنتم تفسقون : أي تخرجون عن طاعة الله ورسوله.

معنى الآيات:

لما ذكر تعالى الرجل المؤمن وأعماله الصالحة ومواقفه المشرفة ذكر هنا الرجل الكافر وأعماله الباطلة ومواقفه السيئة وذلك من باب الدعوة إليه تعالى بالترغيب والترهيب فقال تعالى ﴿والذي[1]

(١) قيل: إن هذه الآية نزلت في أحد ابني أبي بكر الصديق عبدالرحمن أو عبدالله وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، ومن قال به رد اسم الإشارة (أولائك الذين حق عليهم القول..) إلى من طالب الولد بإحيائهم ممن ماتوا على الشرك لأن كلا من عبدالله وعبدالرحمن قد أسلم وحسن إسلامه استجابة الله دعوة أبي بكر.

قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني[1] أن اخرج[2] وقد خلت القرون من قبلي﴾ يخبر تعالى عن أخبث إنسان هو ذاك الملحد العاق لوالديه المنكر للبعث والجزاء إذ قال لوالديه أمه وأبيه أفٍ لكما أي نتناً وقبحا لكما أتعدانني بأن أخرج من قبري حياً بعد ما مت، وقد مضت أمم وشعوب قبلي، وما خرج منها أحد من قبره فكيف تعدانني أنتما ذلك إن هذا لتخلف عقلي وتأخر حضاري وقوله تعالى ﴿وهما يستغيثان الله﴾[3] أي ووالداه يستغيثان الله ويستصرخانه طلبا إغاثتهما بهداية ولدهما الملحد الشيوعي، ويقولان للولد ويلك أي هلاكك حضر يا ولد هلكت آمن بالبعث والجزاء وصلِّ وصُم واترك الزنا والخمر ويلك إن وعد الله حق أي إن ما وعد الله به عباده من إحيائهم للحشر والحساب والجزاء حق فلا يتخلف أبدا فيرد عليهما الولد الملحد الدّهريُّ بما أخبر تعالى به عنه في قوله فيقول ﴿ما هذا إلا أساطير الأولين﴾[4] أي أكاذيبهم التي كانوا يعيشون عليها ويقصونها في مجالسهم، وبما أن الذي قال لوالديه لفظه مفرد ولكنه دال على جنس كان الخبر جمعا فقال تعالى في الإخبار عنهم ﴿أولئك الذين[5] حق عليهم القول﴾ أي القول بالعذاب الدال عليه قوله تعالى ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، وفي قوله ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ أي في جملة أمم سبقتهم في الإلحاد والكفر من العالمين عالم الجن وعالم الإنس وقوله ﴿إنهم كانوا خاسرين﴾[6] وأي خسران أعظم من عبد يخسر نفسه وأهله ويعش في جهنم خالدا فيها أبدا. وقوله تعالى ﴿ولكل درجات[7] مما عملوا﴾ أي ولكل من المؤمنين البارين والكافرين العاقين درجات مما عملوا من خير أو شر إلا أن درجات المؤمنين في الجنة تذهب في عُلو متزايد ودرجات الكافرين في النار تذهب في سفل متزايد إلى أسفل سافلين. وقوله تعالى ﴿وليوفيهم[8] أعمالهم﴾ كاملة غير منقوصة الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها وهم لا يظلمون بنقص حسنة ولا بزيادة سيئة. وقوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ أي اذكر يارسولنا لهؤلاء المشركين يوم يعرضون على النار ويقال لهم في توبيخ وتقريع ﴿أذهبتم

---

(١) (أتعدانني) الاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢) (ان أخرج) أي: من قبري حياً بعد موتي وفنائي، إنكاراً منه للبعث الآخر.

(٣) وقد أجاب الله دعاء أبي بكر وزوجه أم رمان حيث أسلم ابنهما رضي الله عنهم أجمعين.

(٤) (أساطير الأولين) أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له.

(٥) الإشارة هنا إلى أولئك الذين ذكرهم ابن أبي بكر كعبدالله بن جدعان وعثمان بن عمرو ومشايخ قريش فقال أين فلان وأين فلان إنكاراً منه للحياة بعد الموت.

(٦) خسروا أعمالهم حيث ضاع سعيهم في الحياة الدنيا وخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

(٧) (ولكل) التنوين عوض أي: لكل من الفريقين المؤمنين والكافرين الأبرار والفجار درجات مما عملوا، وهي مراتبهم التي لهم في الجنة أو في النار.

(٨) قرأ الجمهور (ولنوفيهم) بالنون وقرأ حفص (وليوفيهم) بالياء.

طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي باقبالكم على الشهوات والملآذ ناسين الدار الآخرة فاستمتعتم بكل الطيبات ولم تبقوا للآخرة شيئا ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي الهوان ﴿بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق﴾ إذ لا حق لكم في الكبر لضعفكم وعجزكم إنما الكبرياء لله الملك الحق أما أنتم فقد ظلمتم باستكباركم عن الإيمان بربكم ولقائه وعن طاعته ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي وبفسقكم عن طاعة ربكم وطاعة رسوله. إذاً فادخلوا جهنم داخرين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ حرمة عقوق الوالدين وأنها من الكبائر.

٢ـ بيان حنان الوالدين وحبهما لولدهما وبذل كل ما يقدران عليه من أجل إسعاده وهدايته.

٣ـ التحذير من الانغماس في الملاذ والشهوات والاستمتاع.

٤ـ التحذير من الكبر والفسق وأن الكبر من أعمال القلوب والفسق من أعمال الجوارح.

٥ـ مدى فهم السلف الصالح لهذه الآية ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها.

١) قرأ يزيد حتى بلغ ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ ثم قال تعلمون والله إن أقواما يسترطون حسناتهم استبقى رجل طيباته إن استطاع ولا قوة إلا بالله.

٢) روي أن عمر بن الخطاب كان يقول لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا، ولكن استبقي طيباتي.

وذُكِر أنه لمّا قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال له خالد بن الوليد لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر رضي الله عنه وقال لئن كان حظنا الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيدا.

۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾

شرح الكلمات :

واذكر أخا عاد : أي نبي الله هودا عليه السلام.

إذ أنذر قومه بالأحقاف : أي خوف قومه عذاب الله بوادي الأحقاف.

وقد خلت النذر : أي مضت الرسل.

من بين يديه ومن خلفه : أي من قبله ومن بعده إلى أممهم.

ألا تعبدوا إلا الله : أي أنذروهم بأن لا يعبدوا إلا الله.

إني أخاف عليكم : أي إن عبدتم غير الله.

عذاب يوم عظيم : أي هائل بسبب شرككم بالله وكفركم برسالتي.

أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا : أي لتصرفنا عن عبادتها.

فأتنا بما تعدنا : أي من العذاب على عبادتها.

إن كنت من الصادقين : أي في انه يأتينا قطعا كما تقول.

قال إنما العلم عند الله : أي علم مجيء العذاب ليس لي وإنما هو لله وحده.

وأبلغكم ما أرسلت به إليكم : أي وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلني به ربي إليكم.

ولكني أراكم قوما تجهلون : أي حظوظ أنفسكم وما ينبغي لها من الإسعاد والكمال وإلاّ كيف تستعجلون العذاب مطالبين به.

فلما رأوه عارضا : أي رأوا العذاب سحابا يعرض في الأفق.

مستقبل أوديتهم : أي متجها نحو أوديتهم التي فيها مزارعهم.

قالوا هذا عارض ممطرنا : أي قالوا مشيرين إلى السّحاب هذا عارض ممطرنا.

بل هو ما استعجلتم به : أي ليس هو بالعارض الممطر بل العذاب الذي استعجلتموه.

ريح تدمر كل شيء : أي ريح عاتية تهلك كل شيء تمر به.

بأمر ربها : أي بإذن ربها تعالى.

فأصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم : أي أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق إلا مساكنهم.

كذلك نجزي القوم المجرمين : أي كذلك الجزاء الذي جازينا به عاداً قوم هود وهو الهلاك الشامل نجزي المجرمين من سائر الأمم.

معنى الآيات:

مازال السياق الكريم في مطلب هداية قوم النبي محمد ﷺ فقال تعالى ﴿واذكر﴾ أي لقومك للعبرة والاتعاظ ﴿أخا عاد﴾ وهو هود عليه السلام والأخوة هنا أخوة نسب لا دين. اذكره ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾[1] إذ خوفهم عذاب الله إن لم يتوبوا إلى الله ويوحدوه، والأحقاف وادي القوم الذي به مزارعهم ومنازلهم وهو ما بين حضرموت ومهرة وعُمان جنوب الجزيرة العربية. وقوله ﴿وقد خلت النذر[2] من بين يديه ومن خلفه﴾ أي وقد مضت الرسل من قبله ومن بعده في أممهم. أي لم يكن هود أول نذير، ولا أمته أول أمة انذرت العذاب وقوله ﴿ألاَّ تعبدوا إلا الله﴾ أي كل رسول أنذر أمته عاقبة الشرك فأمرهم أن لا يعبدوا إلا الله، وهو معنى لا إله إلا الله التي دعا إليها محمد ﷺ أمته فهي أمر بعبادة الله وترك الشرك فيها، وقوله ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ يوم هائل عظيم وهو يوم القيامة، فكان رد القوم ما أخبر تعالى به في قوله ﴿قالوا أجئتنا لتأفكنا﴾[3] أي تصرفنا عن عبادة آلهتنا. ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ أي من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾[4] فيما توعدنا به وتهددنا، فأجابهم هود عليه السلام بما أخبر تعالى به عنه بقوله ﴿قال﴾ أيْ هود ﴿إنما العلم عند الله﴾[5] أي علم مجيء العذاب وتحديد وقته هذا ليس لي وإنما هو لله منزله، فمهمتي أن أنذركم العذاب قبل حلوله بكم وابلغكم ما أرسلت به إليكم من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والمعاصي، ﴿ولكني أراكم قوما تجهلون﴾[6] أي بمايضركم وما ينفعكم في الدنيا والآخرة وإلا كيف تستعجلون العذاب وتطالبون به إذ المفروض أن تطلبوا الرحمة والسعادة لا العذاب والشقاء قوله تعالى[7] ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم﴾ أي فلما رأى قوم هود العذاب متجها

---

(١) الأحقاف: جمع حقف بكسر وسكون: الرمل العظيم المستطيل.

(٢) وجائز أن تكون (النذر) جمع نذارة، وكونها الرسل هو الذي عليه المفسرون.

(٣) الاستفهام إنكاري والإفك، بفتح الهمزة الصرف، وبالكسر الكذب أو أسوأه.

(٤) جواب الشرط محذوف دل عليه ما تقدمه وهو: (فأتنا بما تعدنا) ولفظ الصادقين، أبلغ في الوصف مما لو قالوا، إن كنت صادقاً.

(٥) (ال) في (العلم) للاستغراق العرفي أي: علم كل شيء، ومنه علم وقت مجيء العذاب.

(٦) أي: تجهلون صفات الله تعالى وحكمة إرسال الرسل، وتجهلون حتى ما ينفعكم وما يضركم وإلا فكيف تطالبون بالعذاب، كما في التفسير.

(٧) الفاء هنا: للتفريع فما ذُكر بعدها متفرع عما تقدمها من قصة هود مع قومه.

نحو أوديتهم التي بها مزارعهم ومنازلهم ﴿قالوا هذا عارض[1] ممطرنا﴾ أي هذا سحاب يعرض في السماء ذاهباً صوب وادينا ليسقينا، وهو معنى قوله ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ أي ممطر أراضينا المصابة بالجفاف الشديد. قال تعالى ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي ليس بالسحاب الممطر بل هو العذاب الذي طالبتم به لجهلكم وخفة أحلامكم، وبيّنه بقوله ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ أي تحمل في ثناياها العذاب الموجع، تدمر كل شيء تمر به فتهلكه ﴿بأمر ربها﴾ أي بإذنه وقد أتت عليهم عن آخرهم ولم ينج إلا هود والذين آمنوامعه برحمة من الله خاصة، ﴿فأصبحوا لا يرى[2] إلا مساكنهم﴾ أي لا يرى الرائي إذا نظر إليهم إلاّ مساكنهم خالية ما بها أحد. قال تعالى ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين[3]﴾ أي كهذا الجزاء بالدمار والهلاك نجزي المجرمين أي المفسدين أنفسهم بالشرك والمعاصي.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ بيان سنة الله في الأمم في إرسال الرسل إليهم

٢ـ وبيان مهمة الرسل وهي النذارة والبلاغ.

٣ـ بيان سفه وجهل الأمم التي تطالب بالعذاب وتستعجل به.

٤ـ بيان أن عاداً أهلكت بالريح الدَّبور، وأن نبينا محمد ﷺ نُصر بريح الصبا كما في الحديث الصحيح.

٥ـ بيان سنة الله تعالى في إهلاك المجرمين وهم الذين يصرون على الشرك والمعاصي.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ

---

(١) العارض: السحاب الذي يعترض جو السماء، والاستقبال التوجه نحو الشيء ليكون قبالته.

(٢) قرأ الجمهور ومنهم نافع: (لا ترى) بالتاء المفتوحة، وقرأ حفص وغيره (لا يُرى) بالياء والبناء للمجهول، والمراد بالمساكن: آثارها وبعض الجدران الشاخصة منها.

(٣) في الآية دليل على إفساد الإجرام وأنه سبب كل هلاك، وحقيقته: أنه إفساد الروح بالشرك والمعاصي فعلا وتركاً.

أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه : أي ولقد مكنا قوم عاد من القوة التي لم نمكنكم أنتم من مثلها.

وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً : وجعلنا لهم أسماعاً وأبصاراً.

فما أغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا أفئدتهم من شيء : أي من الإغناء.

إذ كانوا يجحدون بآيات الله : أي لعلة هي أنهم كانوا يجحدون بآيات الله وهي حججه البيّنة.

وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون : أي نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به.

ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى : أي من أهل القرى كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين.

وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون : أي كررنا الحجج وضربنا الأمثال ونوعنا الأساليب لعلهم يرجعون إلى الحق فيؤمنون ويوحدون.

فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة : أي فهلا نصرهم بدفع العذاب عنهم الذين اتخذوهم من دون الله آلهة يتقربون بهم إلى الله في زعمهم.

بل ضلوا عنهم : أي غابوا عنهم عند نزول العذاب.

وذلك إفكهم وما كانوا يفترون : أي خذلان آلهتهم لهم وعدم نصرتهم لهم بل غيابهم عنهم هو إفكهم وافتراؤهم الذي كانوا يفترونه.

معنى الآيات:

ما زال السياق في مطلب هداية قريش انه لما قص تعالى عليهم قصة عاد وتجلت فيها عظات كثيرة وعبرة كبيرة قال لهم ﴿ولقد مكناهم[1]﴾ أي قوم عاد مكناهم في الأرض فأعطيناهم من مظاهر

---

(١) الجملة في محل نصب على الحال من واو الجماعة في قوله: (قالوا أجئتنا) والكلام مستعمل في التعجيب من عدم انتفاعهم بمواهب عقولهم.

القوة المادية ﴿فيما إن مكناكم فيه﴾[1] أنتم يا معشر كفار قريش وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة أي قلوباً فما أغنى عنهم سمعهم أي أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء من الإغناء إذ كانوا يجحدون بآيات الله أي بحججه وبيّناته الدالة على وجوب توحيده وحاق أي نزل بهم العذاب الذي كانوا إذا خوفوا به وأنذروا استهزأوا وسخروا وقوله تعالى ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوله ﴿وصرفنا الآيات﴾ أي وكررنا الحجج وضربنا الأمثال ونوعنا العظات والعبر لعلهم يرجعون إلى الحق الذي انصرفوا عنه وهو التوحيد والاستقامة فأبوا إلاّ الإصرار على الشرك والباطل فأهلكناهم.[3] فلولا[4] أي فهلا نصرهم الذين اتخذوهم من دون الله قرباناً آلهة يتقربون بها إلى الله في زعمهم والجواب مانصروهم بل ضلوا عنهم أي غابوا فلم يعثروا عليهم بالكلية. قال تعالى ﴿وذلك إفكهم[5] وما كانوا يفترون﴾ أي ذلك الذي تم لهم من الخذلان والعذاب هو إفكهم أي كذبهم وافتراؤهم الذي كانوا يعيشون عليه قبل هلاكهم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- بيان أن الإعراض عن دين الله والإصرار على الفسق عن أمر الله، والاستمرار على الخروج على طاعته إذا استوجب صاحبه العذاب ونزل به لم يغن عنه ذكاؤه ولا دهاؤه ولا علمه وحضارته ولا علوه وتطاوله.

٢- بيان أن الآيات والحجج وضرب الأمثال وسوق العبر والعظات لا تنفع في هداية العبد، إذا لم يرد الله هدايته ﴿إن الله لا يهدي من يضل﴾ ويحيق به العذاب ويهلكه جزاء تكذيبه وكفره وإعراضه وفسقه.

---

(١) ﴿فيما إن مكناكم فيه﴾ (ما) موصولة و(إن) نافية عدولا عن النفي بما حتى لا تجتمع ميمان، الموصولة والنافية ارتقاء في الأسلوب.

(٢) التمكين: إعطاء المكنة: بفتح الميم وكسر الكاف وهي: القدرة والقوة، يقال: مكن من كذا وتمكن إذا قدر عليه، ومكنه أقدره عليه.

(٣) أصل لولا إذا دخلت على الجملة الفعلية كانت للتحضيض على تحصيل ذلك الفعل فإذا كان الفاعل غير المخاطب بالكلام كانت للتوبيخ، إذ لا طائل في تحضيض المخاطب على فعل غيره، والإتيان بالموصول لما في الصلة من التنبيه على الخطأ والغلط في عبادة الأصنام التي لم تغن عنهم شيئاً كقول الشاعر:

إن الذين ترونهم إخوانكم   يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

(٤) الكلام تضمن التوبيخ للأمم الهالكة على شركهم وعنادهم لرسلهم تعريضاً بقريش المصرة على الخطأ نفسه الذي هلكت به الأمم المجاورة لها لعلهم يتذكرون فيتوبون.

(٥) (وذلك إفكهم) هذه فذلكة قوله تعالى: (فلولا نصرهم الذين اتخذوا) الخ والإشارة إلى ما تضمنه قوله: اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة والافتراء نوع من الكذب كابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق.

٣- بيان غياب الشركاء من الأنداد التي كانت تعبد عن عابديها فضلا عن نصرتها لهم وذلك الخذلان هو جزاء كذبهم وافترائهم في الحياة الدنيا.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن : أي واذكر إذ أملنا إليك نفراً من الجن جن نصيبين أو نينوي.

فلما حضروه قالوا انصتوا : أي حضروا سماع القرآن قالوا أي بعضهم لبعض أصغوا لاستماع القرآن.

فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين : أي فرغ من قراءته رجعوا إلى قومهم مخوفين لهم من العذاب.

مصدقا لما بين يديه : أي من الكتب السابقة كالتوراة والانجيل والزبور وغيرها.

يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم : أي من العقائد في الشرائع والاسلام.

ويجركم من عذاب أليم : أي ويحفظكم هو عذاب يوم القيامة.

فليس بمعجز في الأرض : أي فليس بمعجز الله هرباً منه فيفوته.

أولئك في ضلال مبين : أي الذين لم يجيبوا داعي الله وهو محمد ﷺ إلى الإيمان.

: أي في ضلال عن طريق الإسعاد والكمال ظاهر بيّن.

معنى الآيات:

ما زال السياق في طلب هداية قوم النبي ﷺ إنه بعد أن ذكرهم بعاد وما أصابها من دمار وهلاك نتيجة شركها وكفرها وإصرارها على ذلك فقال تعالى ﴿واذكر أخا عاد﴾ إلى آخر الآيات ذكرهم هنا بما هو تقريع لهم وتوبيخ إذ أراهم أن الجن خير منهم لسرعة استجابتهم للدعوة والقيام بتبليغها فقال تعالى ﴿وإذ[1] صرفنا إليك نفراً من الجن[2]﴾ أي اذكر لقومك من كفار مكة وغيرها إذ صرفنا إليك نفراً من الجن وهم عدد ما بين السبعة إلى التسعة من جن نصيبين وكانوا من أشراف الجن وسادتهم صرفناهم إليك أي أملناهم إليك وأنت تقرأ في صلاة الصبح ببطن نخلة بين مكة والطائف صرفناهم إليك يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا[3] أي أصغوا واستمعوا ولا تشوشوا، قاله بعضهم لبعض، فلما قضي أي القرآن فرغ منه، ولّوا إلى قومهم أي رجعوا إلى قومهم من الجن بنصيبين ونينوي منذرين إياهم أي مخوفينهم من عذاب الله إذا استمروا على الشرك والمعاصي فماذا قالوا لهم قالوا ما أخبر تعالى به عنهم قالوا يا قومنا[4] إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى[5] وهو القرآن مصدقا لما بين يديه أي من الكتب الإلهية التي سبق نزولها كصحف ابراهيم والتوراة والزبور والإنجيل، ووصفوا القرآن بما يلي يهدي إلى الحق والصواب في كل شيء اختلف فيه الناس من العقائد والديانات والأحكام، ويهدي إلى صراط مستقيم أي طريق قاصد غير جور ألا وهو الإسلام دين الأنبياء عامة[6]

وقالوا مبلغين منذرين ﴿ياقومنا أجيبوا داعي الله﴾ وهو محمد رسول الله ﷺ ﴿وآمنوا به﴾ أجيبوه إلى ما يدعو إليه من توحيد الله وطاعته وآمنوا بعموم رسالته وبكل ما جاء به من الهدى ودين الحق ويكون جزاؤكم على ذلك أن ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ أي يغفر لكم الذنوب التي بينكم وبين الله تعالى بسترها عليكم ولا يؤاخذكم بها، وأما الذنوب التي بينكم وبين بعضكم بعضاً فإنها لا تغفر إلا من قِبل المظلوم نفسه باستسماحه أو ردُّ الحق إليه، وقوله

---

(١) الجملة معطوفة على قوله (واذكر أخا عاد) وإن طلبت المناسبة بين هذه الآيات وما تقدمها في السورة فهي قوله تعالى (أولائك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين).

(٢) النفر: العدد دون العشرين.

(٣) (أنصتوا) أمر بتوجيه الأسماع إلى الكلام اهتماماً به لئلا يفوت منه شيء وفي الحديث: (أن النبي ﷺ أمر جابرا في حجة الوداع فقال له: استنصت الناس) قبل أن يبدأ خطبته ﷺ.

(٤) جملة: (قالوا يا قومنا) الخ مبينة لقوله تعالى: (منذرين).

(٥) ظاهر الآية أنهم كانوا يهودا مؤمنين بموسى ولم يكونوا على دين عيسى عليه السلام.

(٦) قال ابن عباس رضي الله عنهما: استجاب لهم سبعون رجلاً من قومهم فأتوا النبي ﷺ فوافقوه بالبطحاء «مكة» فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم.

ويجركم من[1] عذاب أليم أي ويحفظكم منقذاً لكم من عذاب أليم أي ذي ألم موجع وهو عذاب النار، ثم قالوا: ﴿ومن لا يجب داعي الله﴾ أي لم يستجب لنداء محمد فيؤمن به ويوحد الله تعالى فليس بمعجز في الأرض أي لله بل الله غالب على أمره ومهما حاول الهرب فإن الله مدركه لا محالة ﴿وليس له من دون الله أولياء﴾ يتولون أمره ولا أنصار ينصرونه. قال تعالى ﴿أولئك﴾ أي المذكورون في هذا السياق ممن لم يجيبوا داعي الله محمد ﷺ ﴿في ضلال مبين﴾ أي في عمى وغواية بين أمرهم واضح لا يستره شيء.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- إثبات عالم الجن وتقريره في هذا السياق ولذا كان إنكار الجن كإنكار الملائكة كفراً.

٢- وجوب التأدب عند تلاوة القرآن بالإصغاء التام.

٣- وجوب البلاغ عن رسول الله ﷺ وفي الحديث بلغوا عني ولو آية.

٤- الإعراض عن دين الله يوجب الخذلان والحرمان.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾

---

(١) اختلف في: هل مؤمنو الجن يدخلون الجنة أو لا؟ فذهب أبو حنيفة والحسن البصري قبله إلى أن ثوابهم أن ينجوا من النار فقط ثم يكونون ترابا كسائر الحيوان، وذهب مالك والشافعي وغيرهما إلى أنهم يدخلون الجنة، وحجة المانعين من دخولهم الجنة هذه الآية ﴿يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ ودليل من قال بدخولهم الجنة قوله تعالى في هذه السورة ﴿لكل درجات مما عملوا﴾.

شرح الكلمات:

ولم يعيى بخلقهن : أي لم يتعب ولم ينصب لخلق السموات والأرض.

بقادر على أن يحيي الموتى بلى: أي انه قادر على إحياء الموتى وإخراجهم أحياء من قبورهم للحشر.

ويوم يعرض الذين كفروا على النار : أي ليعذبوا فيها.

أليس هذا بالحق : أي يقال لهم تقريعاً: أليس هذا أي العذاب بحق؟.

قالوا بلى وربنا : أي انه لحق وربنا حلفوا بالله تأكيداً لخبرهم.

فاصبر : أي يارسولنا محمد على أذى قومك.

أولوا العزم : أي أصحاب الحزم والصبر والعزم وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم وهم أصحاب الشرائع.

ولا تستعجل لهم : أي ولا تستعجل نزول العذاب لأجلهم.

كأنهم يوم يرون العذاب : أي في الآخرة.

لم يلبثوا إلا ساعة : أي لم يقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار وذلك لطول العذاب.

بلاغ : أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ لهم.

هل يهلك إلا القوم الفاسقون : أي ما يهلك إلا القوم التاركون لأمر الله المعرضون عنه الخارجون عن طاعته.

معنى الآيات:

ما زال السياق في مطلب هداية قريش الكافرة بالتوحيد المكذبة بالبعث والنبوة فقال تعالى ﴿أو لم يروا﴾ أي أعمُوا ﴿أولم[1] يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض﴾ إنشاءًا وإبداعا من غير مثال سابق ﴿ولم يعْيَ[2]﴾ أي ينصب ويتعب ﴿بخلقهن﴾ أي السموات والأرض بقادر على أن يحيي الموتى لحشرهم إليه ومحاسبتهم ومجازاتهم بحسب أعمالهم في الدنيا الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾ وقوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾ لما أثبت البعث وقرره ذكر بعض ما يكون فيه فقال ويوم يعرض الذين[3] كفروا على النار أي تعرضهم الزبانية على النار فيقولون لهم

(١) الاستفهام إنكاري، وجوابه قوله تعالى: ﴿بلى إنه على كل شيء قدير﴾.

(٢) عيي كرضي ويعي كيرضى وهو: العجز في الحيلة والرأي وأما الإعياء بمعنى التعب ففعله: أعيا يعيى إعياء إذا تعب، وجائز أن يكون عيي بمعنى نصب وتعب.

(٣) أظهر في موضع الإضمار للإشارة إلى علة الحكم وهي: الكفر تحذيراً منه.

تقريعاً وتوبيخاً ﴿أليس هذا بالحق؟﴾[1] أي أليس هذا التعذيب بحق؟ فيقولون مقسمين على ثبوته بما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿قالوا بلى وربنا﴾ فلما اعترفوا قيل لهم ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب كفركم أي جحودكم لتوحيد الله ولقائه. ثم أمر تعالى رسوله أن يتدرَّع بالصبر وأن يتمثل صبر أولي العزم[2] ليكون أقوى منهم صبراً كما هو أعلى منهم درجة فقال له فاصبر يارسولنا على ما تلاقيَ من أذى قومك من تكذيب وأذى فاثبت لذلك كما ثبت أولوا العزم من قبلك، والظاهر انهم المذكورون في قوله تعالى من سورة الأحزاب ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾، ومن الجائز أن يكون عدد أولي العزم أكثر مما ذُكر وقوله تعالى ﴿ولا تستعجل لهم﴾ لما أمره بالصبر نهاه عن استعجال العذاب لقومه فقال فاصبر ولا تستعجل العذاب لهم. ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾[3] تعليل لعدم استعجال العذاب لأنه قريب جداً حتى إنهم يوم ينزل بهم ويرونه كأنهم لم يلبثوا في الدنيا على طول الحياة فيها إلا ساعة من نهار وقوله تعالى ﴿بلاغ﴾ أي هذا القرآن وما حواه من تعليم وبيان للهدى تبليغ للناس وقوله ﴿فهل يهلك[4] إلا القوم الفاسقون﴾ ينفي تعالى هلاك غير الفاسقين عن أوامره الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله ﷺ.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢- الكفر هو الموجب للنار والكفر هو تكذيب بوجود الله تعالى وهو الإلحاد أو تكذيب بلقائه تعالى أو بآياته أو رسله، أو شرائعه بعضا أو كُلاً.

٣- وجوب الصبر على الطاعات فعلا، وعن المعاصي تركا، وعلى البلاء بعدم التَضجُروالسّخط.

٤- اطلاق الفسق على الكفر باعتباره خروجا عن طاعة الله فيما يأمر به من العقائد والعبادات وينهى عنه من الشرك والمعاصي.

---

(١) الاستفهام تقريري وتنديم على ما كانوا يزعمونه من الباطل، وإقسامهم بقولهم: (وربنا) من باب التحنن والتخضع تلمساً العفو وعدم المؤاخذة.

(٢) العزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد، والمحمود منه ما كان في امتثال أوامر الله ورسوله واجتناب نواهيهما، ودونه ما كان فيما يجلب خيراً ويدفع شراً.

(٣) (من نهار) وصف لساعة، وكونها من نهار إشارة إلى قلتها وعدم طولها بخلاف ساعة الليل فإنها تُرى طويلة. و(بلاغ) خبر، والمبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ.

(٤) (فهل يهلك) الاستفهام للنفي ولذا صح الاستثناء منه، و(ال) في (القوم) للجنس ليشمل كل من فسق، والفسق: الخروج عن طاعة الله والرسول ﷺ بالإصرار على الشرك والكفر.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ[1]

أو القتال
مدنية
وآياتها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

شرح الكلمات :

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله : أي كفروا بتوحيد الله ولقائه وبآياته ورسوله وصدوا غيرهم عن الدخول في الإسلام .

أضل أعمالهم : أي أحبط أعمالهم الخيرية كإطعام الطعام وصلة الأرحام فلا يرى لها أثرٌ يوم القيامة .

والذين آمنوا وعملوا الصالحات : أي آمنوا بالله وآياته ورسوله ولقائه وأدوا الفرائض واجتنبوا النواهي .

وآمنوا بما نزل على محمد : أي بالقرآن الكريم .

كفر عن سيئاتهم : أي محا عنهم ذنوبهم وغفرهالهم .

وأصلح بالهم : أي شأنهم وحالهم فهم لا يعصون الله تعالى .

ذلك : أي اضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين .

---

(١) تسميتها بسورة محمد أكثر وأشهر في كتب التفسير والحديث معاً .

بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل : أي الشيطان في كل ما يمليه عليهم ويزينه لهم من الكفر. والشرك والمعاصي .

وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم : أي التوحيد والعمل الصالح .

كذلك يضرب الله للناس أمثالهم : أي كما بيّن تعالى حال الكافرين، وحال المؤمنين في هذه الآية يبين للناس أمثالهم ليعتبروا.

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿الذين[1] كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم[2]﴾ هذه جملة خبريّة أخبر تعالى فيها عن حال من كفر بالله ورسوله وصد عن سبيل الله أي الإسلام غيره من الناس أضل[3] الله عمله فأحبطه فلم يحصل له ثواب في الآخرة، ولازمه انه هالك في النار، وتكون هذه الجملة كأنها جواب لسؤال نشأ عن قوله تعالى في خاتمة سورة الأحقاف قبل هذه السورة وهي فهل يُهلك إلاّ القوم الفاسقون أي ما يهلك إلاّ القوم الفاسقون فقال قائل من هم القوم الفاسقون؟ فكان الجواب الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وهو وجه ارتباط بين السورتين حسن. هذا وقوله تعالى ﴿والذين آمنوا﴾ أي[4] بالله ورسوله وآياته ولقائه وعملوا الصالحات أي أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا رمضان وحجوا البيت الحرام ووصلوا الأرحام وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولو بالاستعداد للقيام بذلك إذ بعض هذه الصالحات لم يشرع بعد وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة لأنها وحي إلهي يتلقاه رسول الله ﷺ وفي صحيح الحديث [ألا وإني أُوتيت القرآن ومثله معه] وقوله تعالى ﴿وهو الحق من ربهم﴾ أي القرآن لأنه ناسخ للكتب قبله ولا ينسخ بكتاب بعده. فهو الحق الثابت الباقي إلى نهاية الحياة. وقوله ﴿كفّر عنهم سيئاتهم﴾ أي محا عنهم ذنوبهم وأصلح بالهم[5] أي شأنهم وحالهم فلم يفسدوا بعد بشرك ولا كفر

---

(١) الكفر الإشراك بالله والصد عن سبيل الله، هو صرف الناس عن اتباع النبي ﷺ، والدخول في الإسلام، ويدخل فيه الصد عن المسجد الحرام للاعتمار والحج.

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في المطعمين ببدر وهم اثنا عشر رجلا: أبو جهل والحارث بن هشام وذكرهم، وهم الذين أطعموا الناس يوم بدر ليثبتوا على القتال ولا يفروا، أبطل أعمالهم لعلة شركهم وكفرهم والآية عامة في كل كافر وما بعدها في كل مؤمن.

(٣) أصل الإضلال: الخطأ عن الطريق، ولما كان المطعمون عملوا عملا ظنوا أنه خير لهم ونافع فلما أبطله الله تعالى عليهم فلم ينتفعوا به كانوا كمن ضل طريقه فشقى وهلك.

(٤) هذه فئة المؤمنين المقابلة لفئة الكافرين ذكر لها ثلاث صفات كما لتلك ثلاث صفات وهي: الإيمان المقابل للكفر، والإيمان بما نزل على محمد المقابلة للصد عن سبيل الله، وعمل الصالحات المقابلة لما فعله المطعمون من الطعام.

(٥) البال: يطلق على القلب وعلى العقل، وعلى ما يخطر للمرء من التفكير وهو اكثر إطلاقه ولعله حقيقة فيه، ومجاز في غيره، ويطلق أيضاً على الحال والشأن، والقدر لحديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر).

هذا جزاؤهم على إيمانهم وصالح أعمالهم. وقوله تعالى ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل﴾[1] وهـو الشيطان ومـا يزينه من أعمال الشرك والشر والفساد، ﴿وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ وهو القرآن وما جاء به ودعا إليه من العقائد الصحيحة والعبادات المزكية للنفس المهذبة للأرواح. أي ذلك الجزاء للذين كفروا والذين آمنوا بسبب أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم. وقوله تعالى ﴿كذلك يضرب[2] الله للناس أمثالهم﴾ أي مثل هذا التبيين لحـال الكـافرين وحال المؤمنين في هذه الآيات يبيّن الله للناس أمثالهم أي أحوالهم بالخسران والنجاح ليعتبروا فيسلكوا سبيل النجاح، ويتجنبوا سبيل الخسران، فضلا منه تعالى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ بيان طريقي الفلاح والخسران فطريق الفلاح الإيمان والعمل الصالح وطريق الخسران الشرك والمعاصي.

٢ـ بيان أن أعمال البر مع الكفر والشرك لا تنفع صاحبها يوم القيامة ولا تشفع له وقد يثاب عليها في الدنيا فيبارك له في ماله وولده.

٣ـ بيان الحكمة في ضرب الأمثـال وهي هداية الناس إلى ما يُفلحون به، فينجون من النار ويدخلون الجنة.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) هذا تبيين للسبب الأصلي في إضلال أعمال الكافرين وإصلاح بال المؤمنين والباء: بأن: سببية، واسم الإشارة مبتدأ والخبر: قوله (بأن الذين..) الخ والإشارة إلى ما تقدم من الخبرين (أضل أعمالهم) و(كفّر عنهم سيئاتهم).

(٢) هذه الجملة تذييل لما سبق من بيان حال كل من الكافرين والمؤمنين و(يضرب) بمعنى يلقي مبيّناً، والأمثال: جمع مثل وهو: الحال التي تمثل صاحبها أي: تشهره للناس وتعرفهم به فلا يلتبس بنظائره.

فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

شرح الكلمات :

فإذا لقيتم الذين كفروا : أي إذا كان الأمر كما ذُكر فإذا لقيتم الذين كفروا في ساحة المعركة فاضربوا رقابهم ضرباً شديداً تفصلون فيه الرقاب عن الأبدان .

حتى إذا أثخنتموهم : أي أكثرتم فيهم القتل ولم يصبح لهم أمل في الانتصار عليكم .

فشدوا الوثاق : أي فأسروهم بدل قتلهم وشدوا الوثاق أي ما يوثق به الأسير من إسار قِدّاً كان أو حبلا حتى لايتفلتوا ويهربوا .

فإما مناً بعد وإما فداء[1] : أي بعد أسركم لهم وشد وثاقهم فإما أن تمنوا منّا أي تفكوهم من الأسر مجاناً ، وإما تفادونهم بمال أو أسير مسلم ، وهذا بعد نهاية المعركة .

حتى تضع الحرب أوزارها : أي واصلوا القتال والأخذ والأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها وهي آلاتها وذلك عند إسلام الكفار أو دخولهم في عهدكم فهذه غاية انتهاء الحرب حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ذلك : أي الأمر ذلك الذي علمتم من استمرار القتال إلى غاية إسلام الكفار أو دخولهم في عهدكم وذمتكم .

ولو يشاء الله لانتصر منهم : أي بغير قتال منكم كأن يخسف بهم الأرض أو يصيبهم بوباء ونحوه .

ولكن ليبلو بعضكم ببعض : ولكن أمركم بالقتال وشرعه لكم لحكمة هي أن يبلو بعضكم ببعض أي يختبركم من يقاتل منكم ومن لا يقاتل ، والمؤمن يُقتل فيدخل الجنة والكافر يُقتل فيدخل النار .

والذين قتلوا في سبيل الله[2] : أي قتلهم العدو، وقرىء قاتلوا في سبيل الله .

---

(١) (منّا) و(فداءً) : منصوبان على المفعولية المطلقة أي : تمنون مناً وإما تفدون فداء .

(٢) قرأ نافع (قاتلوا) بالبناء للفاعل، وقرأ حفص : (قوتلوا) بالبناء للمفعول.

فلن يضل أعمالهم	: أي لا يحبطها ولا يبطلها.
سيهديهم ويصلح بالهم	: أي سيوفقهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ويصلح شأنهم.
ويدخلهم الجنة عرفها لهم	: أي ويدخلهم يوم القيامة الجنة بينها لهم فعرفوها بماوصفها لهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.
ان تنصروا الله	: أي في دينه ورسوله وعباده المؤمنين.
ينصركم ويثبت أقدامكم	: أي على عدوكم ويثبت أقدامكم في المعارك.
والذين كفروا فتعساً لهم	: أي تعسوا تعسا أي هلاكا وخيبة لهم.
وأضل أعمالهم	: أي احبطها وأبطلها فلم يحصلوا بها على طائل.
ذلك	: أي الضلال والتعس.
بأنهم كرهوا ما أنزل الله	: أي من القرآن المشتمل على أنواع الهدايات والاصلاحات.
فأحبط أعمالهم	: أي أبطلها وأضلها فلا ينتفعون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة.

معنى الآيات:

لقد تقدم أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد أضل أعمالهم وذلك لكفرهم وصدهم عن سبيل الله إذا كان الأمر كذلك فليقاتلوا لانهاء كل من المفسدتين كفرهم وصدهم غيرهم عن الإسلام وهذا ما دل عليه قوله تعالى فإذا لقيتم[1] الذين كفروا فضرب الرقاب أي فاضربوا[2] رقابهم ضربا يفصل الرأس عن الجسد وواصلواقتالهم حتى إذا أثختنموهم أي أكثرتم فيهم القتل، فشدوا الوثاق أي[3] احكموا ربط الأسرى بوضع الوثاق وهو الحبل في أيديهم وأرجلهم حتى لا يتمكنوا من قتلكم ولا الهرب منكم وبعد ذلك أنتم وما يراه إمامكم من المصلحة العليا فإن رأى المن فمنوا عليهم مجانا بلا مقابل، وإما تفادونهم فداء بمال، أو برجال، وستظل تلك حالكم قتل وأخذ وأسر ثم من وعفو مجاني، أو فداء بعوض ومقابل إلى أن تضع الحرب أوزارها أي اثقالها من عُدد وعتاد حربي، وذلك لوصولكم إلى الغاية من الحرب وهي أن يسلم الكافر، أو يدخل في ذمة المسلمين، وهو معنى قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة

---

(١) الفاء للتفريع أي: تفريع هذا الكلام على ما قبله، والمقصود تهوين شأن الكافرين في قلوب المسلمين، وإغراء المسلمين بقطع دابر الكافرين و(إذا): ظرفية شرطية، وجوابها: (فضرب الرقاب) واللقاء معناه المقابلة في ساحة الحرب.

(٢) (فضرب): نصب ضرب على المفعولية المطلقة أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، والجملة كناية عن قتل المشركين في ساحة المعركة سواء كان الضرب بالسيف أو الرمح أو السهام، فصارت هذه الجملة لما تحمله من معاني الأخذ بالشدة كأنها مثل سائر.

(٣) (الوثاق) بفتح الواو، ويجوز كسرها الشيء الذي يوثق به وهو كناية عن الأسر إذ الأسر يستلزم وضع الإسار في يد الأسير ليقاد به.

ويكون الدين لله﴾. وقوله تعالى ﴿ذلك﴾ أي الأمر الذي علمتم من استمرار القتل والأسر إلى أن تضع الحرب أوزارها[1] بالدخول في[2] الإسلام أو في ذمة المسلمين وقوله ولو شاء الله لانتصر منهم أي بدون قتال منكم ولكن بخسف أو وباء أو صواعق من السماء ولكن لم يفعل ذلك من أجل أن يَبْلُوَ بعضكم ببعض أي ليختبركم بهم. فيعلم المجاهدين منكم والصابرين، ويبلوهم بكم فيعاقب من شاء منهم بأيديكم، ويتوب على من يشاء منهم كذلك، إذ انتصاركم عليهم ووقوعهم تحت سلطانكم يساعدهم على التوبة إلى الله والرجوع إلى الحق فيسلموا فيفلحوا بالنجاة من النار ودخول الجنة، وقوله تعالى ﴿والذين قاتلوا في سبيل الله﴾ وفي قراءة[3] والذين قُتلوا في سبيل الله وهذه عامة في شهداء أُحد وغيرهم وإن نزلت الآية فيهم فإن الله تعالى يخبر عن إنعامه عليهم بقوله فلن يضل أعمالهم سيهديهم في الدنيا ويوفقهم إلى كل خير ويصلح شأنهم، ويدخلهم في الآخرة الجنة عرفها لهم أي بينها لهم في كتابه ولسان رسوله وطيّبها لهم أيضا،[4] وفي الآخرة يهديهم إلى منازلهم في الجنة كما قال الرسول ﷺ [فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا] «البخاري»، وقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ أي يامن آمنتم بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا إن تنصروا الله بنصر دينه ونبيّه وأوليائه بقتال أعدائه ينصركم الله ويجعل الغلبة لكم، ويثبت أقدامكم في كل معترك لقيتم فيه المشركين والكافرين. وهذا وعد من الله تعالى كم أنجزه لعباده المؤمنين في تاريخ الجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى والذين كفروا فتعساً[5] لهم أي تعسوا تعسا[6] وهلكوا هلاكا وخابوا وخسروا، وأضل أعمالهم فلم يعثروا عليهاولم يروا لها أدنى فائدة ذلك الجزاء وتلك العقوبة بأنهم أي بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله أي من القرآن من آيات التوحيد والشرائع والأحكام فأحبط أي لذلك أعمالهم فخسروا في الحياتين.

---

(١) الأوزار: جمع وزر كحمل وأحمال، والمراد بها الأثقال من العتاد الحربي وهي كناية عن انتهاء الحرب بنصر الإسلام والمسلمين.

(٢) اختلف في: هل هذه الآية منسوخة أو محكمة والصحيح انها محكمة وأن الإمام مخير بين القتل والأسر والفداء والمن ولكن لابد من النظر في مصلحة الإسلام والمسلمين فنظر الحاكم يكون محققاً للمصلحة العامة.

(٣) (قاتلوا) قراءة نافع و(قتلوا) قراءة حفص كما تقدم في النهر قريباً.

(٤) قال ابن عباس (عرفها لهم) أي طيّبها لهم بأنواع الملاذ مأخوذ من العرف بفتح العين: الرائحة الطيبة.

(٥) التعس: الشقاء، ويطلق على الهلاك والخيبة والسقوط والانحطاط.

(٦) (تعسا): منصوب على المفعولية المطلقة كما في التفسير ويجوز أن يكون مستعملا في الدعاء عليهم لقصد التحقير والتفضيع لشأنهم وهو مثل سقياً ورعياً له وتباً له وويحاً له، وإن كان هذا فإنه يتعين تقدير قول محذوف أي: فقال الله: تعساً لهم. كقول أم مسطح: تعس مسطح دعاء عليه.

هداية الآيات :

من هداية الآيات :

١ـ وجوب الجهاد على أمة الإسلام ومواصلته كما بيّن تعالى في هذه الآيات إلى أن لا يبقى كافر يحارب بأن يدخلوا في الإسلام أو يعاهدوا ويدخلوا في ذمة المسلمين ويقبلوا على إصلاح أنفسهم وإعدادها للخير والفلاح.

٢ـ إمام المسلمين مخير في الأسرى بين المنّ والفداء، والقتل أيضا لأدلة من السنة.

٣ـ بشرى المجاهدين في سبيل الله بإكرام الله لهم وإنعامه عليهم في الدنيا والآخرة.

٤ـ يظفر بالنصر الحقيقي من نصر الله تعالى في دينه وأوليائه.

٥ـ إنذار الكافرين بالتعاسة والشقاء في الدنيا والآخرة.

۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾

شرح الكلمات :

أفلم يسيروا في الأرض : أي أغفل هؤلاء المشركون فلم يسيروا في البلاد.

فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : أي كيف كانت نهاية الذين من قبلهم كعاد وثمود.

دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها: أي دمر عليهم مساكنهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم وللكافرين أمثال تلك العاقبة السيئة.

وأن الكافرين لا مولى لهم : أي لا ناصر لهم.

والذين كفروا يتمتعون ويأكلون : أي بمُتع الدنيا من مطاعم ومشارب وملابس ويأكلون.

كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم : أي كأكل الأنعام بِنهم وازدراد والنار مأواهم.

وكأين من قرية هي أشد قوة : أي وكثير من أهل قرية هي أشد قوة.

من قريتك التي أخرجتك : أي مكة إذ أخرج أهلها النبي ﷺ.

أفمن كان علي بينة من ربه : أي على حجة وبرهان من أمر دينه فهو يعبد الله على علم.

كمن زين له سوء عمله : أي كمن زين الشيطان له سوء عمله.

واتبعوا أهواءهم : أي واتبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام والجواب ليسوا سواء ولا مماثلة بينهما أبدا.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾[1] يوبخ تعالى المشركين المصرين على الشرك والكفر على إصرارهم على الشرك والعناد فيقول أغفلوا ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم﴾ كعاد وثمود وقوم لوط إذ دمر تعالى عليهم بلادهم فأهلكهم وأولادهم وأموالهم فيعتبروا بذلك، وقوله تعالى ﴿وللكافرين﴾ أمثال تلك العاقبة المدمِّرة، وعيد لكفار مكة بأن ينزل عليهم عقوبة كعقوبة الأولين إن لم يتوبوا من شركهم وإصرارهم عليه، وعنادهم فيه. وقوله ﴿ذلك﴾[2] أي نصر المؤمنين وقهر الكافرين بسبب أن الله مولى الذين آمنوا أي وليهم ومتولي أمرهم وناصرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله تعالى خاذلهم ومن يخذله الله فلا ناصر له. وقوله تعالى ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[3] هذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح بأن يدخلهم يوم القيامة جنات أي بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار وقوله ﴿والذين كفروا يتمتعون﴾ في الدنيا بملاذها وشهواتها، ﴿ويأكلون كما تأكل الأنعام﴾ إذ ليس لهم هَمّ إلا بطونهم وفروجهم، ولذا هم لا

---

(١) الفاء للتفريع، تفريع هذه الجملة الكلامية على الجملة السابقة وهي: (والذين كفروا فتعساً لهم) والاستفهام للتقرير التوبيخي.

(٢) جائز أن يكون اسم الإشارة منصرفا إلى مضمون قوله تعالى (وللكافرين أمثالها) فيفيد أن ما أصاب المشركين من الدمار والخزي والعار بسبب أن الله ناصر الذين آمنوا وما في التفسير في غاية الوضوح.

(٣) كلام مستأنف استئنافاً بيانياً، إذ هو بمثابة جواب لمن سأل عن حال المؤمنين في الآخرة وحال الكافرين في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر معلوم وهو أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون إذ بيّن تعالى حال المؤمنين في الآخرة، وحال الكافرين في الدنيا.

يلتفتون إلى الآخرة. ﴿والنار مثوى لهم﴾[1] أي مقام ومنزل ومصير، وهذا وعيد شديد للكافرين. وهذا هو الترغيب والترهيب الذي هو سمة بارزة في أسلوب القرآن في الهداية البشرية وقوله تعالى ﴿وكأين[2] من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك[3] أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ هذه الآية نزلت ساعة خروج الرسول ﷺ من بيته إلى غار ثور مهاجراً فقد التفت إلى مكة وقال أنت أحب البلاد إلى الله وأحب بلاد الله إليّ ولو أن المشركين لم يُخرجوني لم أخرج منك. ومعنى الآية الكريمة وكثير من القرى أهلها أشد قوة من أهل قريتك «مكة» التي أخرجك أهلها حيث حكموا بإعدامه ﷺ أهلكناهم أي أهل تلك القرى فلا ناصر وجد لهم عند إهلاكنا لهم. فكانت هذه الآية تحمل تسلية لرسول الله ﷺ وأي تسلية!! وقوله تعالى ﴿أفمن كان على بيّنة من ربه﴾ أي على علم وبرهان من صحة معتقده وعبادته لله تعالى راجياً ثوابه خائفا من عقابه وهؤلاء هم المؤمنون، كمن زين له سوء أي قبيح عمله من الشرك والكفر فهو يعبد الأصنام، واتبعوا أهواءهم هم في ذلك فلم يتبعوا وحياً إلهياً ولا عقلا إنسانيا فهل حالهم كحال من ذُكروا قبلهم والجواب لا يتماثلان إذ بينهما من الفوارق كما بين الحياة والموت، والجنة والنار.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- تقرير قاعدة: العاقل من اعتبر بغيره.

٢- تقرير ولاية الله لأهل الإيمان والتقوى.

٣- بيان الفرق بين الماديين وأهل الإيمان والاستقامة على منهج الإسلام.

٤- تسلية الرسول ﷺ تخفيفا من آلامه التي يعانيها من إعراض المشركين وصدوفهم عن الإسلام.

مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ

ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ

---

(١) المثوى: مكان الثواء، الذي هو الاستقرار، وشاهده قول الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء   رب ثاوٍ يُملّ منه الثواء

(٢) (كأين) تدل بوضعها على كثرة العدد مثل كم والمراد بالقرية أهلها بدليل أهلكناهم إذ لم يقل: أهلكناها، والمراد بالقرية هنا: مكة أمّ القرى وأضيفت إلى النبي ﷺ تشريفاً لها زيادة على شرفها إذ هي بلد الله الأمين.

(٣) أطلق الإخراج على ما عامل به المشركون الرسول ﷺ من الجفاء والأذى ومحاربة نشر الدعوة فكان ذلك سبب خروجه منها، فأطلق الإخراج على مسبباته، وإلا فالرسول ﷺ خرج باختياره ولم يكرهه المشركون على الخروج بل كانوا يحاولون منعه من الخروج.

يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات :

مثل الجنة التي وعد المتقون	: أي صفة الجنة دار السلام التي وعد الله بها عباده المتقين له .
من ماء غير آسن	: أي غير متغيّر الريح والطعم لطول مكثه .
وأنهار من عسل مصفى	: أي من الشمع وفضلات النحل .
وسقوا ماء حميما	: أي حاراً شديد الحرارة .
فقطع أمعاءهم	: أي مصارينهم فخرجت من أدبارهم .

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي[1] وعد المتقون﴾ هذه الآية الكريم تضمنت شرحا وافيا لأنهار الجنة، وشراب أهل النار، كما اشتملت على مقارنة بين حال أهل الإيمان والتقوى وما وعدوا به من مغفرة ذنوبهم وإدخالهم الجنة، وبين حال أهل النار وهم خالدون فيها وما وعدوا فيها من ألوان العذاب الشديد فقوله تعالى ﴿مثل الجنة﴾ أي صفتها الممثلة لها الشارحة لحالها التي وُعد المتقون أي التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين له وهم أولياؤه الذين عبدوه ووحدوه فأطاعوه في الأمر والنهي فاتقوا بذلك الشرك والمعاصي .فيها أنهار من ماء غير آسن[2] أي غير متغير الطعم ولا الريح بطول المكث وأنهار من لبن لم يتغير طعمه أي بحموضة ولم يصر قارصا ولذلك لم يتغير ريحه أيضا وأنهار من خمرة لذة للشاربين[3] أي وفيها أنهار من خمر هي لذة لمن يشربها وسبب لذاذتها أنها غير كدرة ولا مسكرة ولا ريح غير طيبة لها ،وأنهار من عسل مصفى أي وفيها أنهار من عسل مصفى أي من الشمع وفضلات النحل وقوله ولهم فيها من كل الثمرات أي من سائر أنواع

---

(١) هذه الآية مستأنفة استئنافاً بيانياً إذ فيها بيان لما قد يسأل عنه السائل . (ومثل الجنة) مبتدأ والخبر محذوف يقدّر،بمثل مما سيوصف لكم أو ما سيتلى عليكم أو مما يتلى عليكم مثل الجنة وجملة : (فيها أنهار) بدل مفصل من مجمل .

(٢) أسن الماء : كضرب يأسن ، وكنصر وفرح أيضاً فهو آسن : إذا تغير لونه .

(٣) اللذة : وصف وليست اسماً وهي تأنيث اللذ أي اللذيذ قال الشاعر:

ذكرت شبابي اللذ غير قريب ومجلس لهو طاب بين شروب

واللذاذة انفعال نفساني .

الشمار من فواكه وغيرها. ومع ذلك مغفرة من ربهم لسائر ذنوبهم فهل يستوى من هذه حالهم بحال من هو خالد في النار لا يخرج منها وسقوا ماء حميما حارا شديد الحرارة فلما سقوه وشربوه قطع أمعاءهم[1] أي مصارينهم فخرجت من أدبارهم والعياذ بالله من النار وحال أهل النار اللهم أجرنا من النار اللهم اجرنا من النار اللهم أجرنا من النار.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ التقوى هي السبب المورث للجنة هكذا جعلها الله عز وجل، والتقوى هي بعد الإيمان فعل المأمورات وترك المنهيات من سائر أنواع الشرك والمعاصي.

٢ـ بيان بعض نعيم الجنة من الشراب والفواكه.

٣ـ بيان بعض عذاب النار وهو الخلود فيها وشرب الحميم.

٤ـ تقرير البعث والجزاء، وأن لا مماثلة بين أهل السعادة وأهل الشقاء.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

ومنهم من يستمع إليك : أي ومن الكفار المنافقين من يستمع إليك في خطبة الجمعة.

ماذا قال آنفا : أي الساعة أي استهزاء منهم وسخرية يعنون انه شيء لا يُرجع إليه ولا يعتد به لعدم فائدته.

(١) الأمعاء: جمع معى بكسر الميم وقد تفتح وهو ما ينتقل إليه الطعام بعد نزوله من المعدة، ويسمى عفج بوزن كتف.

طبع الله على قلوبهم : أي بالكفر فلذا هم لا يعون.
واتبعوا أهواءهم : أي في الكفر والنفاق.
والذين اهتدوا : أي المؤمنون.
زادهم هدى : أي زادهم الله هدى.
وآتاهم تقواهم : أي ألهمهم ما يتقون به عذاب الله تعالى.
فهل ينظرون إلا الساعة : أي ما ينتظر أهل مكة إلاّ الساعة.
أن تأتيهم بغتة : أي فجأة.
فقد جاء أشراطها : أي علاماتها كبعثة النبي ﷺ وانشقاق القمر والدخان.
فأنى لهم إذ جاءتهم ذكراهم : أي أنى لهم إذا جاءتهم التذكر الذي ينفعهم إذ قد أُغلق باب التوبة.
فاعلم انه لا إله إلا الله : أي فبناء على ما تقدم لك يا نبيّنا فاعلم أنه لا يستحق العبودية إلا الله فاعبده وتوكل عليه.
واستغفر لذنبك : أي قل استغفر الله أو اللهم اغفر لي.
وللمؤمنين والمؤمنات : أي واستغفر للمؤمنين والمؤمنات.
والله يعلم متقلبكم : أي متصرفكم في النهار وأنتم تتصرفون في أمور دنياكم.
ومثواكم : أي مكان ثواكم وإقامتكم ونومكم بالليل.

معنى الآيات:

قوله تعالى ومنهم من يستمع إلي هذه الآية (١٦) والآية التي بعدها مدنيّتان لا شك لأنهما نزلت في شأن المنافقين قال تعالى مخبراً رسوله عن بعض المنافقين ﴿ومنهم﴾ أي ومن بعض المنافقين ﴿من يستمع إليك﴾[١] أي إلى حديثك يوم الجمعة وأنت تخطب الناس على المنبر ﴿حتى إذا خرجوا من عندك﴾ أي من المسجد ﴿قالوا للذين أوتوا العلم﴾[٢] من أصحابك كعبد الله بن مسعود ﴿ماذا قال آنفا﴾[٣]، وقولهم هذا ظاهر عليه الخبث إذا لو كانوا مؤمنين محبين لقالوا

(١) روي عن مقاتل أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبيّ بن سلول ورفاعة بن التابوت والحارث بن عمرو وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخشم من المنافقين بالمدينة إلا أن مالك بن الدخشم قد أسلم وحسن إسلامه والاستماع السماع ولكن بعناية واهتمام يتظاهرون بذلك نفاقاً لا غير.
(٢) هم نفر من أصحاب الرسول ﷺ منهم عبدالله بن مسعود، وأبو الدرداء وابن عباس وإن كان يومها صغيراً فإنه لا مانع أن يسأل ويجيب لما هو مؤهل له من طلب العلم والكمال فيه.
(٣) (آنفاً): أي الآن وهو أقرب الأوقات، وسؤالهم هذا سؤال استهزاء، وآنفاً لم يُسمع إلا ظرفاً هكذا، وقيل هو مشتق من الأنف لأنه أول ما يظهر من البعير فأطلق على أقرب الوقت. ومنه أمر أنف، وروضة أنف لم تُرع بعد قال الشاعر:

ويحرم سر جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنف القصاع

ماذا قال رسول الله آنفا، ولكن قالوا ماذا قال آنفا ، وهم يعنون أن ما قاله الرسول ﷺ ليس بشيء مفيد يرجع إليه . قال تعالى ﴿أولئك﴾ أي البعداء في الشر والنفاق الذين طبع الله على قلوبهم أي بالكفر والنفاق وذلك لكثرة تلوثهم بأوضار الكفر والنفاق حتى ران على قلوبهم ذلك فكان ختما وطابعا على قلوبهم، واتبعوا أهواءهم فهما علتان الأولى الطبع المانع من طلب الهداية والثانية اتباع الهوى وهو يعمي ويصم ، فلذا هم لا يهتدون ، وقوله تعالى ﴿والذين اهتدوا﴾ إلى الإيمان الصحيح والعمل الصالح زادهم الله هدى حسب سنته في نماء الأشياء وزكاتها وزيادتها، وآتاهم تقواهم[1] أي ألهمهم ما يتقون وأعانهم على ذلك فهم يتقون مساخط الله تعالى ومن أعظمها الشرك والمعاصي . وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (١٨) فهل ينظرون أي كفار قريش[2] من زعماء الكفر في مكة إلا الساعة أي ما ينتظرون إلا الساعة أي القيامة أن تأتيهم بغتة أي فجأة إن كانوا ما ينظرون بإيمانهم إلا الساعة فالساعة قد جاء أشراطها وأول أشراطها بعثة محمد ﷺ وثانيها الدخان، وثالثها انشقاق القمر. وقوله تعالى ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم[3]﴾ أي أنى لهم التذكر الذي ينفعهم إذا جاءت الساعة بل شروطها أي بظهور علاماتها الكبرى[4] لا تقبل التوبة من أحدلم يكن مؤمنالقوله تعالى من سورة الأنعام ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ . على كل حال فالآية تستبطىء إيمان كفار مكة وتنكر عليهم تأخر إيمانهم الذي لا داعي له مع ظهور أدلة العقل والنقل ووضوح الحجج والبراهين الدالة على توحيد الله ووجوب عبادته وحده دون من سواه ولذا قال تعالى فاعلم انه لا إله إلا الله[5] واستغفر لذنبك وللمؤمنين[6] والمؤمنات أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي له العبادة وتصلح له إلا الله الذي هو خالق كل شيء ومالكه واستغفر أي اطلب من ربك المغفرة لك وللمؤمنين والمؤمنات ، وهذا الكلام وإن وجه للرسول ﷺ فالمراد منه على الحقيقة أو بالأصالة غيره ﷺ فكأنما قال تعالى يا عباد الله أيها الناس والرسول على

---

(١) مما ذكر في هذه الزيادة أنه آتاهم ثواب تقواهم في الأخرة وأنه بيّن لهم ما يتقون وأنه وفقهم للأخذ بالعزائم وترك الرخص وما في التفسير أشمل وأوضح .

(٢) يبدو أنه ما هناك حاجة إلى تخصيص كفار قريش بهذا الخطاب وإن كانوا داخلين فيه لأنّ السورة مدنية .

(٣) أي : من أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة .

(٤) في صحيح مسلم عن حذيفة والبراء قالا : كنا نتذاكر الساعة إذا أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال : (بما تتذاكرون؟ قلنا نتذاكر الساعة . قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، : الدخان ودابة الأرض وخسفاً بالمشرق وخسفاً بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ونارا تخرج من عدن) .

(٥) هذه الآية من أدلة وجوب العلم قبل القول والعمل ، وهو ما بوّب به البخاري رحمه الله تعالى .

(٦) لا ذنب للرسول ﷺ لعصمته، وإنما هو من باب قوله ﷺ (إنه ليغان على قلبي وإني استغفر الله في اليوم مائة مرة) . ومعنى يغان : يغام ويغشى ، وقيل إنه غين أنوار لا غين أغيار.

رأسكم اعلموا انه لا إله إلا الله واستغفروا لذنوبكم مؤمنين ومؤمنات والله يعلم متقلبكم أي تصرفكم في النهار في مصالح معاشكم ومعادكم ويعلم مثواكم[1] في فرشكم نائمين فهو يعلمكم على ما أنتم عليه في كل ساعة من ليل أو نهار فاخشوه واتقوه حتى تفوزوا برضاه في جنات النعيم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- من الجائز أن تكون السورة مكية وبها آية أو أكثر مدنيّة.

٢- التحذير من اتباع الهوى فإنه يعمي ويصم والعياذ بالله.

٣- بيان أن لقيام الساعة أشراطاً أي[2] علامات تظهر قبلها فتدل على قربها.

٤- وجوب العلم بأنه لا إله إلا الله، وذلك يتم على الطريقة التالية:

الاعتراف بأن الإنسان مخلوق كسائر المخلوقات حوله، وكل مخلوق لابد له من خالق فمن خالق الإنسان والكون إذاً؟ والجواب قطعا: الله. فما دام الله هو الخالق فمن عداه مخلوق مفتقر إلى الله خالقه في حفظ حياته، ومن يُؤله ويُعبد إذاً الخالق أم المخلوق؟ والجواب: الخالق. إذاً تعيّن انه لا معبود إلا الله وهو معنى لا إله إلا الله ولما كانت العبادة لا تعرف إلا بالوحي وجب الإيمان برسول الله فكان لابُد من زيادة محمد رسول الله فنقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

(١) المثوى: المآل والمرجع.

(٢) روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (بعثت أنا والساعة كهاتين وضم السبابة والوسطى).

شرح الكلمات:

لولا نزلت سورة : أي هلاّ نزلت سورة يقول هذا المؤمنون طلباً للجهاد.

سورة محكمة : أي لم ينسخ منها شيء من أوامرها ونواهيها.

وذكر فيها القتال : أي طلب القتال بالدعوة إليه والترغيب فيه.

في قلوبهم مرض : أي شك وهم المنافقون.

نظر المغشي عليه من الموت : أي خوفا من القتال وكراهية له فتراهم ينظرون إلى الرسول مثل نظر المغشي عليه من سكرات الموت.

فأولى لهم طاعة وقول معروف : أي فأجدر بهم طاعة لرسول الله وقول معروف حسن له.

فإذا عزم الأمر : أي فرض القتال وجد أمر الخروج إليه.

فلو صدقوا الله : أي وفواله ما تعهدوا به من أنهم يقاتلون.

لكان خيرا لهم : أي الوفاء بما تعهدوا به خيراً في دنياهم وآخرتهم.

فهل عسيتم ان توليتم : أي أعرضتم عن الإيمان الصوري الذي أنتم عليه وأعلنتم عن كفركم.

أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم : أي تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي ولا تصلوا أرحامكم.

فاصمهم وأعمى أبصارهم : أي فعل تعالى ذلك بهم فلذا هم لا يسمعون الحق ولا يُبصرون الخير والمعروف.

معنى الآيات:

قوله تعالى ويقول الذين آمنوا إلى آخر السورة ظاهرهُ انه مدني وليس بمكي وهو كذلك فأغلب آي السورة مدني إذاً، ولا حرج: لأن القتال لم يفرض إلا بعد الهجرة النبوية والنفاق لم يظهر إلا بعد الهجرة كذلك والسياق الآن في علاج النفاق وأمور الجهاد قال تعالى ويقول الذين آمنوا من أصحاب رسول الله ﷺ متمنين الجهاد لولا نزلت[1] سورة أي هلا أنزل الله سورة قرآنية تأمر بالجهاد قال تعالى فإذا انزلت سورة محكمة ليس فيهانسخ وذكر فيها القتال أي الأمر به والترغيب فيه. رأيت يا محمد الذين في قلوبهم مرض أي مرض الشك والنفاق ينظرون إليك يا رسولنا[2] نظر أي مثل نظر المغشي أي المغمي عليه من الموت أي من سياقات الموت وسكراته. قال تعالى

---

(١) شوقاً إلى الجهاد وما أعد الله من ثواب لأهله، كما هو اشتياق للوحي ونزوله.

(٢) نظر مغمومين مغتاظين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره عند الموت.

﴿فأولى لهم﴾ هذا اللفظ صالح لأن يكون دعاء عليهم بالهلاك[1] أي هلاك لهم لجبنهم ونفاقهم وصالح أن يكون بمعنى الأجدر بمثلهم طاعة لله ورسوله وقول معروف أي حسن لرسول الله ﷺ. وقوله تعالى فإذا عزم أي جد الأمر للجهاد فلو صدقوا الله ما عاهدوا عليه من أنهم يقاتلون مع رسوله لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة. ثم قال لهم مخاطباً إياهم توبيخا وتقريعا فهل عسيتم بكسر السين[2] وفتحها قراءتان إن توليتم أي عن الإيمان الصوري إلى الكفر الظاهر فأعلنتم عن ردتكم أن تفسدوا في الأرض بفعل الشرك وارتكاب المعاصي وتقطعوا أرحامكم بإعلان الحرب على أقربائكم المؤمنين الصادقين. هذا إذ كان التولى بمعنى الرجوع إلى الكفر العلني وإن كان بمعنى الحكم فالأمر كذلك إذا حكموا اليفعلون ما هو أعظم من الشرك والفساد في الأرض وتقطيع الأرحام، وأخيراً سجلت الآية (٢٢) لعنة الله فقال تعالى أولئك أي البعداء في الخسة والحطة الذين لعنهم الله فأبعدهم من رحمته فأصمهم عن سماع الحق وأعمى أبصارهم عن رؤية الهدى والطريق المستقيم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ جواز تمنى الخير والأولى أن يسأل الله تعالى ولا يتمنى بلفظ ليت كذا.

٢ـ في القرآن محكم ومنسوخ من الآيات وكله كلام الله يُتلى ويتقرب به إلى الله تعالى ويعمل بالمحكم دون المنسوخ وهو قليل جدا.

٣ـ ذم الجبن والخور والهزيمة الروحية.

٤ـ شر الخلق من إذا تولى أفسد في الأرض بالشرك والمعاصي.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ

(١) أولى: قال الأصمعي معناه قاربه ما يهلكه.

(٢) قرأ نافع وحده بكسر السين وفتحها ما عداه حفص وغيره.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾

شرح الكلمات:

أفلا يتدبرون القرآن : أي يتفكرون فيه فيعرفون الحق من الباطل.

أم على قلوب أقفالها : أي بل على قلوب لهم أقفالها فهم لا يفهمون إن تدبروا.

إن الذين ارتدوا على أدبارهم : أي رجعوا كافرين بنفاقهم.

من بعد ما تبين لهم الهدى : أو من بعدما تبين لهم صدق الرسول وصحة دينه بالحجج والبراهين.

الشيطان سول لهم وأملى لهم : أي زيّن لهم الشيطان نفاقهم وأملى لهم أي واعدهم بطول العمر وَمنَّاهم.

ذلك بأنهم قالوا الذين كرهوا ما أنزل الله : أي ذلك الإضلال بسبب قولهم للذين كرهوا ما أنزل الله وهم المشركون.

سنطيعكم في بعض الأمر : أي بأن نتعاون معكم على عداوة الرسول وبتثبيط المؤمنين عن الجهاد وكان ذلك سرا منهم لا جهرة فأظهره الله لرسوله.

يضربون وجوههم وأدبارهم : أي بمقامع من حديد يضربون وجوههم وظهورهم.

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله : أي التَّوفِّي على الحالة المذكورة من الضرب على الوجوه والظهور بسبب اتباعهم ما أسخط الله من الشرك والمعاصي.

وكرهوا رضوانه : أي ما يرضيه تعالى من التوحيد والعمل الصالح.

فأحبط أعمالهم : أي ابطلها فلم يحصلوا منها على ثواب حسن.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تأديب المنافقين بعيبهم والإنكار عليهم وتهديدهم لعلهم يرجعون إذ حالهم كحال المشركين في مكة فقال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[1] أي مالهم؟ أغفلوا فلم يتدبروا

---

(١) الاستفهام للتعجيب من سوء عملهم بالقرآن وإعراضهم عن سماعه و(بل) للإضراب الانتقالي أي: بل على قلوبهم أقفال، والتدبر: التفهم مشتق من دبر الشيء أي: خلفه.

القرآن أي يتفكروا فيه فيعرفوا الحق من الباطل والهدى من[1] الضلال لأن القرآن نزل لبيان ذلك. أم على قلوب أقفالها أي بل على قلوب[2] لهم أقفالها أي اقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر والحجج والأدلة والبراهين حتى يكون الله هو الذي يفتح تلك الأقفال، والله تعالى يقفل ويفتح حسب سنن له في ذلك وقد ذكرنا هذا المعنى مرات في بيان الهداية والإضلال، وقوله تعالى ﴿إن الذين[3] ارتدوا على أدبارهم﴾ أي رجعوا إلى الكفر بقلوبهم دون ألسنتهم وهم المنافقون من بعد ما تبين لهم الهدى أي صدق الرسول ﷺ وصحة دينه الإسلام هؤلاء المرتدون الشيطان سوَّل لهم أي زين لهم ذلك الارتداد وأملى لهم أي واعدهم ممنيًا لهم بطول العمر والبقاء الطويل في الحياة والعيش الطيب الواسع فيهاوقوله تعالى ذلك أي الإضلال الذي حصل لهم بسبب أنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله من القرآن والشرائع وإبطال الشرك والشر والفساد وهم المشركون قالوا لهم سرا وخفية سنطيعكم في بعض الأمر، وذلك كعدم قتالكم وتثبيط الناس عن القتال إلى غير ذلك مما أسروه لإخوانهم المشركين. وقوله تعالى والله يعلم إسرارهم[4] يخبر تعالى انهم لما كانوا يسرُّون كلمات الكفر للمشركين كان تعالى مطلعا عليهم فهو يعلم إسرارهم وأسرارهم وها هو ذا قد أطلع عليهم رسوله والمؤمنين. وقوله تعالى فكيف أي حالهم إذا توفتهم الملائكة ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب وهم يضربون بمقامع من حديد وجوههم وأدبارهم أي ظهورهم. وقوله تعالى ذلك أي العذاب النازل بهم بسبب أنهم اتبعوا ما اسخط الله من الكفر به وبرسوله. وكرهوا رضوانه أي ما يرضيه عنهم وهو الجهاد في سبيله فأحبط الله أعمالهم أي أبطلها فلم يثبهم عليها لأنهم مشركون كافرون وعمل المشرك والكافر باطل وهو خاسر.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ وجوب تدبر القرآن الكريم عند تلاوته أو سماعه وهو تفهم معانيه في حدود قدرة المسلم على الفهم.

---

(١) ويعرفوا كذلك ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام من عزة ونصر في الدنيا، ومن نعيم مقيم في الآخرة.

(٢) لم يقل على قلوبهم فنكر القلوب وقال: (على قلوب) لتدخل قلوب غيرهم فلا يكون خاصاً بهم، والقفل: حديدة يغلق بها الباب.

(٣) اختلف في هؤلاء المرتدين فقال قتادة هم كفار أهل الكتاب وقال ابن عباس وغيره: هم المنافقون، وكونهم المنافقين أعم إذ من اليهود منافقون.

(٤) قرأ نافع والجمهور (أسرارهم) بفتح الهمزة، وقرأ حفص (إسراراهم) بكسرها فالإسرار بالكسر: مصدر أسرّ إسرارا وبالفتح جمع سرّ.

٢ـ الارتداد عن الإسلام كالرجوع عن الطاعة إلى المعصية سببهما تزيين الشيطان للعبد ذلك وإملاؤه له بالتمنّي والوعد الكاذب.

٣ـ من الردة التعاون مع الكافرين على المؤمنين بأي شكل من أشكال التعاون ضد الإسلام والمسلمين.

٤ـ تقرير عقيدة عذاب القبر وأنه حق ثابت أعاذنا الله منه آمين.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

في قلوبهم مرض : أي مرض النفاق.

أن لن يخرج الله أضغانهم : أي أن لن يظهر أحقادهم على النبي ﷺ والمؤمنين.

ولو نشاء لأريناكهم : أي لعرّفناك بهم فلعرفتهم.

سيماهم : أي بعلاماتهم.

ولتعرفنهم في لحن القول : أي إذا تكلموا عندك في لحن القول أي معناه وذلك بأن يُعرّضوا فيه بتهجين أمر المسلمين أي تقبيح أمرهم.

والله يعلم أعمالكم : أي أيها المؤمنون إن الله يعلم أعمالكم وسيجزيكم بها خيراً.

ولنبلونكم : ولنختبرنّكم بالجهاد وغيره من التكاليف.

حتى نعلم : أي نعلم علم ظهور لكم ولغيركم إذ الله يعلم ذلك قبل ظهوره لما حواه كتاب المقادير.

المجاهدين منكم والصابرين : أي الذين جاهدوا وصبروا من غيرهم.

ونبلوا أخباركم : أي ونُظهر أخباركم للناس من طاعة وعصيان في الجهاد وفي غيره.

إن الذين كفروا : أي بالله ولقائه ورسوله وما جاء به من الدين الحق.

وصدوا عن سبيل الله : أي عن الإسلام.

وشاقوا الرسول : أي خالفوه وعادوه وحاربوه.

من بعد ما تبيّن لهم الهدى : أي عرفوا أن الرسول حق والإسلام حق كاليهود وغيرهم.

لن يضروا الله شيئا : أي من الضرر لأنه متعال أن يناله خلقه بضرر.

وسيحبط أعمالهم : أي يبطلها فلا تثمر لهم ما يرجونه منها في الدنيا والآخرة.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين بكشف عُوارهم وإزاحة الستار عما في قلوبهم من الشك والنفاق فقال تعالى ﴿أم﴾[1] أي أحسب الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والمرض هو مرض النفاق الناجم عن الشك في الإسلام وشرائعه أن لن يخرج الله أضغانهم[2] أي أحقادهم فيظهرها لرسوله والمؤمنين فحسبانهم هذا باطل وقوله تعالى لرسوله ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي بعلامات النفاق فيهم وقوله ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾[3] أي وعزتي وجلالي لتعرفنهم في لحن القول أي في معاني كلامهم إذا تكلموا عندك وبين يديك فإن كلامهم لا يخلو من التعريض بالمؤمنين بانتقاصهم والقدح في أعمالهم، كما قيل «من أضمر سريرة ألبسه الله رداءها» وقوله تعالى في خطابه المؤمنين ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ ولازمه أنه سيجزيكم بها فاصبروا على الإيمان والتقوى. ﴿ولنبلونكم﴾[4] أي ولنختبرنكم بالجهاد والإنفاق والتكاليف ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ أي حتى نظهر ذلك لكم فتعرفوا المجاهد من القاعد والصابر من الضاجر منكم وبينكم، ﴿ونبلو أخباركم﴾ أي ما تخبرون به عن أنفسكم وتتحدثون به فنظهر الصدق من خلافه فيه، ولذا كان الفُضيل بن عياض رحمه الله تعالى إذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا، وقوله جل ذكره ﴿إن

---

(١) (أم) هي المنقطعة المقدرة ببل وهمزة الاستفهام: فبل: للاضراب الانتقالي، والاستفهام إنكاري.

(٢) الأضغان: جمع ضغن كحمل وأحمال، وهو الحقد والعداوة ومحلها القلب: قال الشاعر:

الضاربين بكل أبيض مِخْذم والطاعنين مجامع الأضغان

(٣) (لحن القول) هو ما يفهم من الكلام بالتعريض والإشارة لا بصريح القول.

(٤) بَلا يبلوا بلواً المرء اختبره، فالبلو: الاختبار والتعرف على حال الشيء، ويكون في الشرع بالأمر والنهي.

الذين كفروا﴾[1] أي كذبوا الله ورسوله ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ أي الإسلام فصرفوا الناس عنه بأي سبب من الأسباب، ﴿وشاقوا الرسول﴾ أي خالفوه وعادوه وحاربوه ﴿من بعد ما تبيّن لهم الهدى﴾ أي ظهر لهم الحق وأن الرسول حق والإسلام حق بالحجج والبراهين هؤلاء الكفرة لن يضروا الله شيئا من الضرر لتنزهه عن صفات المحدثين من خلقه ولامتناعه تعالى وعزته، ﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي يبطلها عليهم فلا ينالون بها ما يؤملون في الدنيا بذهاب كيدهم وخيبة أملهم إذ ينصر الله رسوله ويعلي كلمته، وفي الآخرة لأن أعمال المشرك والكافر باطلة حابطة لا ثواب عليها سوى ثواب الجزاء المهين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ بيان حقيقة وهى من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها فكشفه للناس.

٢ـ ومن أحب شيئا ظهر على وجهه وفلتات لسانه.

٣ـ تقرير قاعدة وهي أنه لابد من الابتلاء لمن دخل في الإسلام ليكون الإيمان على حقيقته لا إيمانا صوريا أدنى فتنة تصيب صاحبه يرتد بها عن الإسلام.

٤ـ أعمال المشرك والكافر باطلة لا ثواب خير عليها لأن الشرك محبط للأعمال الصالحة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ

(١) يدخل في هذا اللفظ كفّار قريش وكفار اليهود والمنافقون.

لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات :

ولا تبطلوا أعمالكم : أي بالرياء والشرك والمعاصي

وصدوا عن سبيل الله : أي عن الإسلام .

فلن يغفر الله لهم : أي لأنهم ماتوا على الكفر والكفر محبط للعمل .

فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم : أي فلا تضعفوا وتدعوا إلى الصلح مع الكفار .

وأنتم الأعلون : أي الغالبون القاهرون .

ولن يتركم أعمالكم : أي ولن ينقصكم أجر أعمالكم وثوابها .

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو : أي الاشتغال بالدنيا والتفرغ لها ما هو إلا لهو ولعب لعدم الفائدة منه .

ولا يسألكم أموالكم : أي ولا يكلفكم بإنفاق أموالكم كلها بل بالزكاة فقط .

فيحفكم تبخلوا : أي بالمبالغة في طلبكم المال تبخلوا .

ويخرج أضغانكم : أي أحقادكم وبغضكم لدين الإسلام .

فإنما يبخل عن نفسه : أي عائد ذلك على نفسه لا على غيره فهو الذي يحرم الثواب .

وان تتولوا يستبدل قوما غيركم : أي عن طاعة الله وطاعة رسوله يأت بآخرين غيركم .

ثم لا يكونوا أمثالكم : أي في الطاعة أي يكونوا أطوع منكم لله ورسوله .

معنى الآيات :

لما ذكر تعالى الكفار ومشاقتهم لرسوله ﷺ نادى المؤمنين[1] وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله فقال يا أيها الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول أي فيما يأمرانكم به وينهيانكم عنه من المعتقدات والأقوال والأعمال ولا تبطلوا[2] أعمالكم أي وينهاهم أن

(١) بقوله : (يا أيها الذين آمنوا) وجملة النداء معترضة بين جملة (إن الذين كفروا وصدوا) الخ وبين (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار) .

(٢) إبطال العمل : جعله باطلاً أي : لا فائدة منه ولا ثواب ، فالإبطال تتصف به الأشياء الموجودة ، وكان الحسن البصري يقول : لا تبطلوا أعمالكم بالمعاصي ، وما يبطل العمل على الحقيقة هو أمور ثلاثة : الشرك والرياء ، وأداء العمل على غير الوجه المشروع عليه .

يبطلوا أعمالهم بالشرك والرياء والمعاصي والمراد من إبطال الأعمال أي حرمانهم من ثوابها. ثم أعلمهم مذكرا واعظا لهم فقال إن الذين كفروا أي بالله ورسوله وصدوا عن سبيل الله أي عن الإسـلام بأي سبب من الأسبـاب ثم ماتوا وهم كفار قبل أن يتوبوا. فهؤلاء لن يغفر الله لهم ويعذبهم العذاب المعد لأمثالهم وقوله تعالى فلا[1] تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم[2] الأعلون والله معكم ولن يتـركم أعمالكم ينهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يضعفوا عن قتال أعدائهم من الكافرين ويدعوا الكافرين إلى الصلح والمهادنة وهم أقوياء قادرون وهو معنى قوله وأنتم الأعلون أي الغـالبـون القاهرون. ولن يتركم[3] أعمالكم أي لا ينقصكم أجر أعمالكم بل يجزيكم بها ويزيدكم من فضله وقوله ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ هذه حقيقة وهي أن الحياة الدنيا إن أقبل عليها العبد ناسيا الدار الآخرة مقبلا على الدنيا لن تكون في حقه إلا لهواً ولعبا باعتبار أنه لم يظفر منها على طائل ولم تعد عليه بعائد خير وإسعاد كاللاعب اللاهي بشيء يلعب ويلهو فترة ثم لا يعود عليه ذلك اللعب بشيء كلعب الصبيان ولهوهم فإنهم يلهون ويلعبون بجد ثم يعودون إلى والـديهم يطلبون الطعام والشراب. وقوله وإن تؤمنوا أي الإيمان الصحيح وتتقوا ما يغضب ربكم ويسخطه عليكم من الشرك والمعاصي يؤتكم أجوركم المترتبة على الإيمان والتقوى. وقـولـه ولا يسـألكم أموالكم أي ولا يطلب منكم أموالكم كلها أي كراهة إحفائكم بذلك إن يسألكموها فيحفكم[4] أي بكثرة الإلحاح عليكم تبخلوا إذ هذا معروف من طباع البشر أن الإنسان إذا ألح وألحف عليه في الطلب يبخل بالمال ولم يعطه وقد يترك الإسلام لذلك، وقوله ويخرج أضغانكم أي أحقادكم وبغضكم للدين وكراهيتكم له ولذا لم يسألكم أموالكم وقوله تعالى: ﴿ها[5] أنتم هؤلاء تدعـون[6] لتنفقـوا في سبيل الله﴾ أي جزءاً من أموالكم في الزكاة أو الجهاد لا كُل أموالكم لما يعلم تعالى من شح النفس بالمال وقوله ﴿فمنكم من يبخل﴾ أي يمنع ومن يبخل فإنما يبخل عن[7] نفسه إذ هي التي حرمها أجر النفقة في سبيل الله ذات الأجر العظيم وقوله ﴿والله الغني وأنتم

---

(١) الفاء للتفريع.

(٢) و(الأعلون) معناه الغالبون المنتصرون.

(٣) أي: لا ينقصكم، ومنه الموتور: الذي قُتل له قتيل، وفي الحديث الصحيح: (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله).

(٤) يقال: أحفى في المسألة وألح بمعنى واحد.

(٥) (ها): حرف تنبيه، وفي إعراب الجملة وجهان الأول: وهو أن يكون (أنتم) مبتدأ، و(هؤلاء) منادي معترض، و(تدعون) الخبر، والثاني: أن يكون (أنتم) مبتدأ و(هؤلاء) خبره، وجملة: (تدعون) مستأنفة مؤكدة ومقررة لما سبق.

(٦) أي: في الحال وجائز أن يدعو في المستقبل، إذ الجهاد مستمر والحاجة إلى الإنفاق لا تنقطع، سبيل الله: المراد بها الجهاد وهي كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى.

(٧) يجوز في (يبخل) أن يعدى بعن وبعلى يقال: بخل عليه بكذا أو بخل عنه بكذا أو يُضمّن معنى أمسك، وحينئذ فتعديته بعلى نحو: أمسك عليك لسانك.

الفقراء﴾ إلى الله تعالى فهو غني عنكم لا يحضكم على النفقة لحاجته إليها ولكن لحاجتكم أنتم إليها إذ بها تزكوا نفوسكم وتقوم أموركم وتنتصروا على عدوكم وقوله وإن تتولوا أي ترجعوا عن الإسلام إلى الكفر والعياذ بالله يستبدل الله بكم قوما غيركم أي يذهبكم ويأت بآخرين ثم لا يكونوا أمثالكم بل يكونون أطوع لله تعالى منكم وأسرع امتثالا لما يطلب منهم. وحاشاهم أن يتولوا وما تولوا ولا استبدل الله تعالى بهم غيرهم. وإنما هذا من باب حثهم على معالى الأمور والأخذ بعزائمها نظرا لمكانتهم من هذه الأمة فهم أشرفها وأكملها وأطوعها لله وأحبها له ولرسوله ﷺ.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ وجوب طاعة الله وطاعة رسوله.

٢ـ وجوب اتمام العمل الصالح من صلاة وغيرها بالشروع فيه.

٣ـ بطلان العمل الصالح بالرياء أو بإفساده عند أدائه أو بالردة عن الإسلام.

٤ـ حرمة الركون إلى مصالحة الأعداء مع القدرة على قتالهم والتمكن من دفع شرهم.

٥ـ التنفير من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة.

٦ـ حرمة البخل مع الجدة والسعة.

سورة الفتح[1]

مدنية

وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾

---

(١) نزلت ليلاً بعد صلح الحديبية بين مكة والمدينة قال فيها رسول الله ﷺ: (لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس). البخاري.

وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

شرح الكلمات :

إنا فتحنا لك فتحا مبينا : أي قضينا لك بفتح مكة وغيرها عُنوة بجهادك فتحا ظاهرا بيّنا .

ليغفر لك الله : أي بسبب شكرك له وجهادك في سبيله .

ما تقدم من ذنبك وماتأخر : أي ما تقدم الفتح وما تأخر عنه .

ويتم نعمته عليك : أي بنصرك على أعدائك وإظهار دينك ورفع ذكرك .

ويهديك صراطا مستقيما : ويرشدك طريقا من الدين لا اعوجاج فيه يُفضي بك إلى رضوان ربك .

وينصرك الله نصرا عزيزا : أي وينصرك الله على أعدائك ومن ناوأك نصرا عزيزا لايغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع .

أنزل السكينة في قلوب المؤمنين : أي الطمأنينة بعد ما أصابهم من الاضطراب والقلق من جراء الصلح .

وكان الله عليما حكيما : أي عليما بخلقه حكيما في تدبيره لأوليائه .

ليدخل المؤمنين والمؤمنات : أي قَضَى بالفتح ليشكروه ويجاهدوا في سبيله ليدخلهم جنات .

وكان ذلك عند الله فوزا عظيما : أي وكان ذاك الإدخال والتكفير للسيئات فوزا عظيما.

ويعذب المنافقين والمنافقات : والمشركين والمشركات أي يعذبهم بالهم والحزن لما يرون من نصرة الإسلام وعزة أهله.

الظانين بالله ظن السوء : أي أن الله لا ينصر محمداً وأصحابه.

عليهم دائرة السوء : أي بالذل والعذاب والهوان.

وكان الله عزيزا حكيما : أي كان وما زال تعالى غالبا لا يُغلب حكيما في الانتقام من أعدائه.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ الآيات هذه فاتحة سورة الفتح التي قال فيها رسول الله ﷺ [لقد أُنزلت عليَّ سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾] وذلك بعد صلح الحديبية سنة ست من الهجرة وفي منصرفه منه وهو في طريقه عائد مع أصحابه إلى المدينة النبويّة. وقد خالط أصحابه حزن وكآبة حيث صدوا عن المسجد الحرام فعادوا ولم يؤدوا مناسك العمرة التي خرجوا لها، وتمت أحداث جسام تحمل فيها رسول الله ﷺ مالا يقدر عليه من أولى العزم غيره فجزاه الله وأصحابه وكافأهم على صبرهم وجهادهم بما تضمنته هذه الآيات إلى قوله ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما﴾ فقوله تعالى ﴿إنا فتحنا لك﴾ يارسولنا ﴿فتحاً مبيناً﴾ أي قضينا لك بفتح مكة وخيبر وغيرهما ثمرة من ثمرات جهادك وصبرك وهو أمر واقع لا محالة وهذا الصلح بداية الفتح فاحمد ربك واشكره ليغفر لك بذلك وبجهادك وصبرك ما تقدم من ذنبك[2] وما تأخر ويتم نعمته عليك بنصرك على أعدائك وعلى كل من ناوأك، ويهديك صراطاً مستقيما أي ويرشدك إلى طريق لا اعوجاج فيه يفضي بك وبكل من يسلكه إلى الفوز في الدنيا والآخرة وهو الإسلام دين الله الذي لا يقبل دينا سواه. وينصرك الله نصراً عزيزا أي وينصرك ربك على أعدائك وخصوم دعوتك نصرا عزيزا إي ذا عزّ لا ذُل معه هذه أربع عطايا

---

(١) الماضي هنا بمعنى المستقبل إذ فتح مكة المومى إليه كان سنة ثمانٍ وأطلق الماضي مع إرادة المضارع لتحقق الوقوع وتأكده نحو: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) واللام في (لك): لام الأجل أي: فتحنا لأجلك.

(٢) اضطرب المفسرون في تعليق لام (ليغفر لك) فالسيوطي علّقه بكلمة (بجهادك) زادها بعد جملة ليغفر لك أي: بجهادك يوم فتحك مكة، وفي التفسير قدرنا جملتي: فاحمده على الفتح واشكره عليه ليغفر لك. وأما الذنب مع إجماعهم أنه لا ذنب كبير لعصمته ﷺ فإن احسن ما قيل فيه هو ما يلي: أما الذنب المتقدم فهو قوله ﷺ في بدر: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض ابداً فأوحى إليه: من أين تعلم هذا؟ فكان هذا الذنب المتقدم، والثاني: أنه لما انهزم المسلمون: يوم حنين قال لعمّه ناولني كفاً من حصباء فناوله فرمى به المشركين فانهزموا فقال لأصحابه: (لولا أني رميتهم ما انهزموا) فهذا الذنب المتأخر. والحقيقة أن هذا لو عُدّ ذنباً لكان من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

كانت لرسول الله ﷺ ففرح بها وهي مغفرة الذنب السابق واللاحق ، الفتح للبلاد، الهداية إلى أقوم طريق يفضي إلى سعادة الدارين، والنصر المؤزر العزيز، فلذا قال أُنزلت علىّ آية هي أحب إليّ من الدنيا جميعا. وقوله تعالى ﴿هو الذي أنزل السكينة في[1] قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ أي هو الله المنعم عليك بما ذكر لك الذي أنزل السكينة أي الطمأنينة على قلوب المؤمنين من أصحابك وكان عددهم ألفا وأربعمائة صاحب أنزل السكنية عليهم بعد اضطراب شديد أصاب نفوسهم دل عليه قول عمر رضي الله عنه للرسول ﷺ ألست نبيَّ الله حقا؟ قال: بلى، قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت فَلِمَ نُعطى الدنيّة في ديننا إذاً؟ قال إني رسول الله ولستُ أعصيه وهو ناصري. قلت أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبيَّ الله حقا؟ قال بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال بلى، قلت: فَلِمَ نُعطى الدنيّة في ديننا؟ قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بِغَرْزِهِ أي سر على نهجه ولا تخالفه. فوالله إنه لعلى الحق، قلت أليس كان يحدثنا انه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال بلى. قال فهل أخبرك انه العام؟ قلت: لا قال فإنك تأتيه وتطوف به. وقوله ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ أي بشرائع الإسلام كلما نزل حكم آمنوا به وعملوا به ومن ذلك الجهاد وبذلك يكون إيمانهم في ازدياد. وقوله تعالى ولله جنود[2] السموات والأرض أي ملائكة السماء وملائكة الأرض وكل ذي شوكة وقوة من الكائنات هو لله كغيره ويسخره كما شاء ومتى شاء فقد يسلط جيشاً كافراً على جيش كافر نصرة لجيش مؤمن والمراد من هذا انه تعالى قادر على نصرة نبيّه ودينه بغيركم أيها المؤمنون وكان الله وما زال أزلا وأبدا عليما بخلقه حكيما في تدبير أمور خلقه. وقوله تعالى ﴿ليدخل[3] المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك﴾ أي الإدخال للجنة وتكفير السيئات فوزاً عظيما أي فتح على رسوله والمؤمنين ليشكروا بالطاعة والجهاد والصبر أي تم كل ذلك لِيُدخل المؤمنين والمؤمنات الآية. . وقوله ﴿ويعذب[4] المنافقين والمنافقات

---

(١) (السكينة) السكون والطمأنينة، قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن فهي بمعنى الطمأنينة إلا في البقرة. يريد قوله تعالى: (فيه سكينة من ربكم).

(٢) هذه الجملة تذييلية مذيل بها الكلام السابق، والجنود: جمع جند، والجند: اسم للجماعة المقاتلين لا واحد له من لفظه وجمع باعتبار الجماعات التي يتكون منها وهي المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساقة.

(٣) اللام: لام التعليل متعلقة بفعل (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) وذكر المؤمنات مع المؤمنين هنا لدفع ما يتوهم أن هذا الوعد خاص بالمؤمنين دون المؤمنات في حين أن موقف أم المؤمنين أم سلمة كان عظيماً إذ استشارها رسول الله ﷺ حين أبى أصحابه أن يتحللوا فأشارت عليه بما جعلهم يتحللون.

(٤) هذا معطوف على قوله تعالى: (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) وهذا التعذيب المذكور في الآية تعذيب خاص زائداً على عذاب الكفر والنفاق وفي قوله: (عليهم دائرة السوء) إشارة إلى ذلك.

والمشركين والمشركات﴾ أي فَتَحَ على رسوله والمؤمنين ونصرهم ووهبهم ما وهبهم من الكمال ليكون ذلك غما وهما وحزنا يعذب الله به المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في الدنيا والآخرة وقوله ﴿الظانين بالله ظن السَّوْء﴾[1] هذا وصف للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات حيث إنهم كانوا ظانِّين أن الله[2] لا ينصر رسوله والمؤمنين ولا يعلي كلمته ولا يظهر دينه وقوله تعالى ﴿عليهم دائرة السوء﴾ اخبارا منه عز وجل بأن دائرة السوء تكون على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركنات كما أخبر عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ومعنى أعدَّ هيأ وأحضر لهم ، وساءت جهنم مصيرا يصير إليه الإنسان والجان. بعد نهاية الحياة الدنيا ، وقوله تعالى ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ ينصر بها من يشاء ويهزم بها من يشاء ﴿وكان الله عزيزا﴾ أي غالبا لا يمانع في مراده ﴿حكيما﴾ في تدبيره وصنعه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- الذنب الذي غفر لرسول الله ﷺ من المعلوم بالضرورة انه ليس من الكبائر في شيء وهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٢- إنعام الله على العبد يوجب الشكر والشكر يوجب المغفرة وزيادة الإنعام.

٣- بيان مكافأة الله لرسوله والمؤمنين على صبرهم وجهادهم.

٤- بيان أن الكافرين يحزنون ويُغمُّون لنصر المؤمنين وعزهم فيكون ذلك عذابا لهم في الدنيا.

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ

(١) (ظن السوء) بفتح السين: قراءة العشرة في قوله: (ظـن السـوء) وفـي (عليهـم دائرة السوء) الجمهور على الفتح، وقرأ بعضٌ بضم السين. وهما لغتان كالكره والكُره ، والضَعف والضُعف بالفتح والضم.

(٢) ومعنى ظنهم بالله ظن السوء: أن الله ما وعد الرسول بالفتح ولا أمره بالخروج إلى العمرة ولم ينصر رسوله ﷺ.

فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

شاهدا ومبشرا ونذيرا : أي شاهدا على أمتك أمة الدعوة يوم القيامة ومبشراً من آمن منهم وعمل صالحا بالجنة ونذيراً من كفر أو عصى وفسق بالنار.

ليؤمنوا بالله ورسوله : أي هذا علة للإرسال.

وتعزروه وتوقروه : أي ينصروه ويعظموه وهذا لله وللرسول.

وتسبحوه بكرة وأصيلا : أي الله تعالى بالصلاة والذكر والتسبيح.

إن الذين يبايعونك : أي بيعة الرضوان بالحديبية.

إنما يبايعون الله : لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى.

يد الله فوق أيديهم : أي لأنهم كانوا يبايعون الله إذ هو الذي يجاهدون من أجله ويتلقون الجزاء من عنده.

فمن نكث : أي نقض عهده فلم يقاتل مع الرسول والمؤمنين.

فإنما ينكث على نفسه : أي وبال نقضه عهده عائد عليه إذ هو الذي يجزي به.

فسيؤتيه أجرا عظيما : أي الجنة إذ هي الأجر العظيم الذي لا أعظم منه إلا رضوان الله عز وجل.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في بيان ما أنعم الله تعالى به على رسوله فقال تعالى ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾[1] لله تعالى بالوحدانية والكمال المطلق له عز وجل وشاهداً على هذه الأمة التي أرسلت فيها وإليها عربها وعجمها ومبشراً لأهل الإيمان والتقوى بالجنة ونذيراً لأهل الكفر والمعاصي أي مخوفاً لهم من عذاب الله يوم القيامة. وقوله تعالى ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾ أي أرسلناه كذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وتعزروه﴾ بمعنى تنصروه ﴿وتوقروه﴾ بمعنى تجلوه وتعظموه وهذه واجبة لله ولرسوله الإيمان والتعزير والتوقير، وأما التسبيح والتقديس فهو لله تعالى وحده ويكون بكلمة سبحان الله وبالصلاة وبالذكر لا إله إلا الله، وبدعاء الله وحده

(١) بيان لحكمة الإرسال وما يترتب عليه و(شاهداً) إنه بالنظر إلى شهادته يوم القيامة فهي حال مقدرة، وبالنظر إلى شهادته في الدنيا مع تبشيره ونذارته فهي حال مقارنة. و(إنا أرسلناك) الخ . كلا مستأنف ابتدائي.

وقوله ﴿بكرة وأصيلا﴾[1] أي تسبحون الله ﴿بكرة﴾ أي صباحاً ﴿وأصيلا﴾ أي عشية وقوله تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ يخبر تعالى رسوله بأن الذين يبايعونه على قتال أهل مكة وأن لا يفروا عند اللقاء ﴿إنّما يبايعون الله﴾[2] إذ هو تعالى الذي أمرهم بالجهاد وواعدهم الأجر فالعقد وإن كانت صورته مع رسول الله فإنه في الحقيقة مع الله عز وجل، ولذا قال ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وقوله تعالى ﴿فمن نكث﴾ أي نقض عهده فلم يقاتل ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ ﴿ومن أوفى﴾ بمعنى وفّى ﴿بما عاهد عليه[3] الله﴾ من نصرة الرسول والقتال تحت رايته حتى النصر ﴿فسيؤتيه﴾[4] الله ﴿أجراً عظيماً﴾ الذي هو الجنة دار السلام.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- تقرير نبوة محمد ﷺ والإعلان عن شرفه وعلو مقامه.

٢- وجوب الإيمان بالله ورسوله ووجوب نصرة الرسول وتعظيمه ﷺ.

٣- وجوبُ تسبيح الله وهو تنزيهه عن كل مالا يليق بجلاله وكماله مع الصلاة ليلا ونهارا.

٤- وجوب الوفاء بالعهد، وحرمة نقض العهد ونكثه.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ

---

(١) البُكرة: أوّل النهار، والأصيل: آخره أي: غدوة وعشياً. قال الشاعر:

لعمري لأنت البيت أُكرم أهله   وأجلس في أفيائه بالأصائل

جمع أصيل: العشي.

(٢) هذه هي البيعة التي بايعها المسلمون النبي ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة (السُمرة) وكانوا ألفاً وأربعمائة، وأول من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة: أبو سنان الأسدى، وتُسمى بيعة الرضوان لقوله تعالى: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة).

(٣) قرأ نافع وورش (عليه) بكسر هاء الضمير، وقرأ حفصٌ بضمّها (عليهُ الله) فمن كسر رقّق اسم الجلالة، ومن ضمّ فخّمه.

أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

شرح الكلمات :

المخلفون من الأعراب : أي الـذين حول المـدينة وقد خلّفهم الله عن صحبتك لما طلبتهم ليخرجوا معك إلى مكة خوفا من تعرض قريش لك عام الحديبية وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع .

شغلتنا أموالنا وأهلونا : أي عن الخروج معك .

فاستغفر لنا : أي الله من ترك الخروج معك .

يقولون بألسنتهم أي كل ما قالوه هو من ألسنتهم وليس في قلوبهم منه شيء .

قل فمن يملك لكم من الله شيئا : أي لا أحد لأن الاستفهام هنا للنفي .

إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً :وبخهم على تركهم صحبة رسول الله ﷺ خوفا من قريش .

بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون : أي حسبتم أن قريشا تقتل الرسول والمؤمنين فلم يرجع منهم أحد إلى المدينة .

وظننتم ظن السوء : هو هذا الظن الذي زينه الشيطان في قلوبهم .

وكنتم قوما بورا : أي هالكين عند الله بهذا الظن السيء ، وواحد بور بائر . هالك .

فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا : أي ناراً شديدة الاستعار والالتهاب .

يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء : يغفر لمن يشاء وهو عبد تاب وطلب المغفرة بنفسه ، ويعذب من يشاء وهو عبد ظن السوء وقال غير ما يعتقد وأصر على ذلك الكفر والنفاق .

وكان الله غفورا رحيما : كان وما زال متصفا بالمغفرة والرحمة فمن تاب غفر الله له ورحمه .

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين في الحضر والبادية وذلك بتأنيبهم وتوبيخهم وذكر معايبهم إرادة إصلاحهم فقال تعالى لرسوله ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ وهم غفار ومزينة وجهينة وأشجع[1] وكانوا أهل بادية وأعرابا حول المدينة استنفرهم رسول الله ﷺ ليخرجوا معه إلى مكة للعمرة تحسبا لما قد تُقدم عليه قريش من قتاله ﷺ إلّا أن هؤلاء المخلفين من الأعراب أصابهم خوف وجبن من ملاقاة قريش وزين لهم الشيطان فكرة أن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى المدينة فإن قريشا ستقضي عليهم وتنهي وجودهم فَلِذَٰلِكَ خلفهم الله وحرمهم صحبة نبيّه والمؤمنين فحرموا من مكرمة بيعة الرضوان وأخبر رسوله عنهم وهو عائد من الحديبية بما يلي ﴿سيقول لك المخلفون من الأعراب﴾ معتذرين لك عن تخلفهم ﴿شغلتنا أموالنا﴾ فتخلفنا لأجل إصلاحها، ﴿وأهلونا﴾ كذلك ﴿فاستغفر لنا﴾ أي اطلب لنا من الله المغفرة. ولم يكن هذا منهم حقا وصدقا بل كان باطلا وكذبا فقال تعالى فاضحاً لهم ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ فهم إذاً كاذبون. وهنا أمر رسوله أن يقول لهم أخبروني إن أنتم عصيتم الله ورسوله وتركتم الخروج مع المؤمنين جبنا وخوفا من القتل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أي شراً لكم أو أراد بكم نفعاً أي خيراً لكم؟ والجواب قطعا لا أحد إذاً فإنكم كنتم مخطئين في تخلفكم وظنكم معاً، وقوله ﴿بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾ اضرب تعالى عن كذبهم واعتذارهم ليهددهم على ذلك بقوله ﴿بل كان الله بما تعملون خبيرا﴾ وسيجزيكم به وما كان عملهم إلا الباطل والسوء، ثم أضرب عن هذا أيضا إلى آخر فقال ﴿بل ظننتم[2] أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ إذ تقتلهم قريش فتستأصلهم بالكلية. وزين ذلك الشيطان في قلوبكم فرأيتموه واقعاً، وظننتم ظن السوء وهو أن الرسول والمؤمنين لن ينجوا من قتال قريش لهم، وكنتم أي بذلك الظن قوما بورا لا خير فيكم هلكى لا وجود لكم. وقوله تعالى ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا﴾ وهو إخبار أريد به تخويفهم لعلهم يرجعون من باطلهم في اعتقادهم وأعمالهم إلى الحق قولا وعملا، ومعنى أعتدنا أي هيأنا وأحضرنا وسعيراً بمعنى نار مستعرة شديدة الالتهاب وقوله في الآية الأخيرة من هذا السياق (١٥) ﴿ولله ملك[3]

---

(١) والدليل كذلك، وخرج من أسلم مائة رجل من بينهم مرداس بن مالك الأسلمي والدعباس الشاعر، وعبد الله بن أبي أوفي وزاهر بن الأسود، وأهبان بن أوس وسلمة بن الأكوع الأسلمي، ومن غفار: خُفاف بن أيماء ومن مزينة: عائذ بن عمرو، وتخلف عن الخروج أكثرهم.

(٢) هذه الجملة بدل اشتمال من جملة: (بل كان الله بما تعملون خبيراً) و(إن) مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير الشأن و(لن) لإفادة استمرار النفي، وأكد أيضاً بـ(أبداً) لأن ظنهم كان قوياً.

(٣) هذا الكلام معطوف على قوله تعالى: (فمن يملك لكم من الله شيئا) وهو انتقال من التخويف الشديد إلى الإطماع في المغفرة والرحمة ليكون سبباً في هدايتهم، وتقديم الرحمة على العذاب مشعر بذلك.

السموات والأرض﴾ أي بيده كل شيء ﴿يغفر لمن يشاء﴾ من عباده ويعذب من يشاء فاللائق بهم التوبة والإنابة إليه لا الإصرار على الكفر والنفاق فإنه غير مجد لهم ولا نافع بحال وقد تاب بهذا اكثرهم وصاروا من خيرة الناس، وكان الله غفورا رحيما فغفر لكل من تاب منهم ورحمه. ولله الحمد والمنة.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ إخبار القرآن بالغيب وصدقه في ذلك دال على أنه كلام الله أوحاه إلى رسوله ﷺ.

٢ـ لا يملك النفع ولا الضر على الحقيقة إلا الله و لذا وجب أن لا يطمع إلا فيه، ولا يرهب إلا منه.

٣ـ حرمة ظن السوء في الله عز وجل، ووجوب حسن الظن به تعالى.

٤ـ الكفر موجب لعذاب النار، ومن تاب تاب الله عليه، ومن طلب المغفرة في صدق غفر له.

٥ـ ذم التخلف عن المسابقة في الخيرات والمنافسة في الصالحات.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

المخلفون من الأعراب : أي المذكورون في الآيات قبل هذه وهم غفار وجهينة ومزينة وأشجع.

إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : أي مغانم خيبر إذ وعدهم الله بها عند رجوعهم من الحديبية.

ذرونا نتبعكم : أي دعونا نخرج معكم لنصيب من الغنائم.

يريدون أن يبدلوا كلام الله : أي أنهم بطلبهم الخروج إلى خيبر لأخذ الغنائم يريدون أن يغيروا وعد الله لأهل الحديبية خاصة بغنائم خيبر.

كذلك قال الله من قبل : أي قالـه تعـالى لنا قبل عودتنا إلى المدينة فلن تتبعونا ولن تخرجوا معنا.

فسيقولون بل تحسدوننا : أي فسيقولون بل تحسدوننا وفعلا فقد قالوا ذلك وزعموا انه ليس امراً من الله هذا المنع، وإنما هو من الرسول والمؤمنين حسداً لهم، وهذا دال على نفاقهم وكفرهم والعياذ بالله.

بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا : أي لا يفهمون فهم الحاذق الماهر إلا قليلا وفي أمور الدنيا لا غير.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكـريم في مطلب هداية المنافقين من الحضر والبادية وذلك بالحديث عنهم وكشف عوارهم ودعوتهم إلى التوبة والرجوع إلى الحق عند ظهور انحرافهم وسوء أحوالهم فقال تعـالى لرسوله. سيقول المخلفون الذين تقدم الحديث عنهم وأنهم تخلفوا عن الحديبية من الأعـراب الـذين هم مزينـة وجهينة وغفار وأشجع. أي سيقولون لكم إذا انطلقتم إلى مغانم[1] لتأخذوها ذرونا نتبعكم، وذلك أن الله تعالى بعد صلح الحديبية وما نال أهلها من آلام نفسيّة أكرمهم بنعم كثيرة منها انه واعدهم بغنائم خيبر بأن يتم لهم فتحها ويغنمهم أموالها وكانت أموالاً عظيمة، فلما عادوا إلى المدينة وأعلن الرسول ﷺ عن الخروج إلى خيبر جاء هؤلاء المخلفون يطالبون بالسير[2] معهم لأجل الغنيمة لاغير، قال تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله[3]﴾ وهو وعده لأهل الحديبية بأن يُغنمهم غنائم خيبر، ولذا أمر رسوله أن يقول لهم لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل أي فقد أخبرنا تعالى بحالكم ومقالكم هذا قبل أن تقولوه وتكونوا عليه. وقوله ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾ هذا من جملة ما أخبر تعالى به رسوله والمؤمنين قبل قولهم له وقد قالوه أي ما منعتمونا من الخروج إلى خيبر إلا حسداً لنا أن ننال من الغنائم أي لم يكن الله أمركم بمنعنا ولكن الحسد هو الذي أمركم وقوله تعالى بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا أي وصمهم بوصمة الجهل وجعلها هي علة تخبطهم وحيرتهم وضلالهم، انهم قليلو الفهم والإدراك فليسوا على مستوى الرجل الحاذق الماهر البصير الذي يحسن القول والعمل.

---

(١) هي مغانم خيبر لأنّ الله تعالى وعد أهل الحديبية فتح خيبر وأنها لهم خاصة من غاب منهم ومن حضر سواء، ولم يغب منهم عنها إلا جابر بن عبدالله فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضر.

(٢) روي أنّ النبي ﷺ قال لهم: (إن خرجتم لم أمنعكم إلا أنه لا سهم لكم) وقالوا هذا حسد.

(٣) (يريدون أن يبدلوا كلام الله) أي: يريدون أن يغيّروه يعني يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد به أهل الحديبية، وذلك أن الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عوضا عن فتح مكة.

هداية الآيات :

من هداية الآيات :

١ـ وعد الله رسوله والمؤمنين بغنائم خيبر وهم في طريقهم من الحديبية إلى المدينة وانجازه لهم دال على وجود الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته وكلها موجبة للإيمان والتوحيد وحب الله والرغبة إليه والرهبة منه .

٢ـ بيان حيرة الكافر واضطراب نفسه وتخبط قوله وعمله .

٣ـ ذم الجهل وتقبيحه إنه بئس الوصف يوصف به المرء ، ولذا لا يرضاه حتى الجاهل لنفسه فلو قلت لجاهل يا جاهل لا تفعل كذا أو لا تقل كذا لغضب عليك.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ
وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ
عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ
وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

شرح الكلمات :

قل للمخلفين من الأعراب : أي الذين تخلفوا عن الحديبية وطالبوا بالخروج إلى خيبر لأجل الغنائم اختباراً لهم .

ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد : أي ستدعون في يوم ما من الأيام إلى قتال قوم أولى بأس وشدة في الحرب .

تقاتلونهم أو يسلمون : أي تقاتلونهم . أو هُم يسلمون فلا حاجة إلى قتالهم .

فإن تطيعوا : أي أمر الداعي لكم إلى قتال القوم أصحاب البأس الشديد.

يؤتكم الله أجرا حسنا : أي عودة اعتباركم مؤمنين صالحين في الدنيا والجنة في الآخرة.

وإن تتولوا : أي تعرضوا عن الجهاد كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا للحديبية.

يعذبكم عذابا أليما : في الدنيا بالقتل والاذلال وفي الآخرة بعذاب النار.

حرج : أي إثم.

ومن يتول : أي يعرض عن طاعة الله ورسوله.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في مطلب هداية المنافقين من الأعراب إذ قال تعالى للرسول ﷺ قل للمخلفين الذين أصبح وصف التخلف شعاراً لهم يعرفون به وفي ذلك من الذم واللوم والعتاب ما فيه قل لهم مختبراً إياهم ستدعون في يوم من الأيام إلى قتال قوم أولي بأس شديد في الحروب تقاتلونهم، أو يسلمون[1] فلا تقاتلوهم وذلك بأن يرضوا بدفع الجزية وهؤلاء لا يكونون إلاّ نصارى أو مجوساً فهم إما فارس وإما الروم وقد اختلف في تحديدهم[2] فإن تطيعوا الأمر لكم بالخروج الداعي للجهاد فتخرجوا وتجاهدوا يؤتكم الله أجراً حسناً غنائم في الدنيا وحسن الصيت والأحدوثة والجنة فوق ذلك، وإن تتولوا أي تعرضوا عن طاعة من يدعوكم ولا تخرجوا معه كما توليتم من قبل حيث لم تخرجوا مع رسول الله إلى مكة للعمرة خوفاً من قريش ورجاء أن يُهلك الرسول والمؤمنون ويخلو لكم الجوّ يعذبكم عذاباً أليماً أي في الدنيا بأن يسلط عليكم من يعذبكم وفي الآخرة بعذاب النار وقوله تعالى ليس[3] على الأعمى حرج الآية إنه لما نزلت آية المنافقين قل للمخلفين من الأعراب وكان ختامها وإن تولوا عن الجهاد يعذبكم عذابا أليما خاف أصحاب الاعذار من مرض وغيره وبكوا فأنزل الله تعالى قوله ليس على الأعمى حرج أي إثم إذا لم يخرج للجهاد ولا على الأعرج[4] حرج وهو الذي به عرج في رجليه لا يقدر على المشي والجري والكر والفر ولا على المريض حرج وهو المريض بالطحال أو الكبد أو السعال من الأمراض

---

(١) في هذه الآية دليل على خلافة أبي بكر إذ هو الذي دعا إلى قتال أصحاب مسيلمة الكذاب، إذ هم الذين لا تقبل منهم الجزية وإنما الإسلام أو القتل، لقوله تعالى: (تقاتلونهم أو يسلمون) أما فارس أو الروم فهم مجوس ونصارى قد تؤخذ منهم الجزية.

(٢) وقيل: إنهم أصحاب مسيلمة الكذاب، وقال رافع بن خديج. والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) فلا نعلم من هم حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة فقلنا: إنهم هم.

(٣) قال ابن عباس لما نزلت: (وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذّبكم عذابا أليما) قال أهل الزمانة: كيف بنا يارسول الله ﷺ فنزلت (ليس على الأعمى حرج ولا على المريض حرج) أي: لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد.

(٤) العرج: آفة تعرض لرجل واحدة، قال مقاتل: هم أهل الزمانة الذين تخلفوا عن الحديبية، وقد عذرهم. وفي هذه الآية بيان من يجوز لهم التخلف عن الجهاد، ولا إثم عليهم وهم العميان والمرضى والعرج.

المزمنة التي لا يقدر صاحبها على القتال وكان يعتمد على الفر والكر ولابُد كذلك من سلامة البدن وقدرته على القتال.

وقوله ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي في أوامرهما ونواهيهما ﴿يدخله[1] جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ وهذا وعد صادق من رب كريم رحيم، ومن يتول عن طاعة الله ورسوله يُعذبه عذاباً أليما وهذا وعيد شديد قوي عزيز ألا فليتق الله امرؤ فإن الله شديد العقاب.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- مشروعية الاختبار والامتحان لمعرفة القدرات والمؤهلات.

٢- بيان أن غزو الإسلام ينتهي إلى أحد أمرين إسلام الأمة المغزوّة أو دخولها في الذمة بإعطائها الجزية بالحكم الإسلامي وسياسته.

٣- دفع الإثم والحرج في التخلف عن الجهاد لعذر العمى أو العرج أو المرض.

٤- بيان وعد الله ووعيده لمن أطاعه ولمن عصاه، الوعد بالجنة. والوعيد بالنار.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

شرح الكلمات:

لقد رضي الله عن المؤمنين : أي الراسخين في الإيمان الأقوياء فيه وهم أهل بيعة الرضوان من أصحاب رسول الله ﷺ.

إذ يبايعونك : أي بالحديبية أيها الرسول محمد ﷺ.

تحت الشجرة : أي سمرة وهم ألف وأربعمائة بايعوا على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا.

---

(١) قرأ نافع (ندخله) و(نعذبه) بالنون، وقرأ حفص: (يدخله) (يعذبه) بالياء.

فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم: أي علم الله ما في قلوبهم من الصدق والوفاء فأنزل الطمأنينة والثبات على ما هم عليه.

وأثابهم فتحاً قريبا: أي هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية في ذي الحجة. وفي آخر المحرم من سنة سبع غزوا خيبر ففتحها الله تعالى عليهم.

ومغانم كثيرة يأخذونها: أي من خيبر.

وكان الله عزيزا حكيما: أي كان وما زال تعالى عزيزا غالبا حكيما في تصريفه شؤون عباده.

معنى الآيتين:

قوله تعالى لقد رضي الله عن المؤمنين[1] هذا[2] إخبار منه تعالى برضاه عن المؤمنين الكاملين في إيمانهم وهم ألف وأربعمائة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت شجرة سمرة إلّا الجد بن قيس الأنصاري فإنه لم يبايع حيث كان لاصقا بإبط ناقته مختبئا عن أعين الأصحاب وكان منافقا ومات على ذلك لا قرت له عين. وسبب هذه البيعة كما ذكره غير واحد أن النبي ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له «وهو الاعتمار» وذلك حين نزل الحديبية. فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش «فرَقٌ من شتى القبائل يُقال لهم الأحابيش واحدهم أحبوش يقال لهم اليوم: اللفيف الأجنبي عبارة عن جيش أفراده من شتى البلاد والدول. فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ. وهنا دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليهم، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظّما لحرمته فراح عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها فنزل عن دابته فحمله بين يديه ثم ردفه وأجاره

---

(١) هذا رجوع إلى تفصيل ما جزى به الله تعالى أهل بيعة الرضوان الذي تقدم إجماله في قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) الآية.

(٢) في قوله تعالى عن المؤمنين (إذ يبايعونك) إعلام بأن من لم يبايع ممن خرج مع الرسول ﷺ كالجد بن قيس لم يفُز برضى الله تعالى وانه غير مؤمن.

حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به قال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قتل. فقال الرسول ﷺ عندئذ لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، هذا معنى قوله تعالى ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك[1] تحت الشجرة[2] فعلم ما في قلوبهم﴾ أي من الصدق والوفاء فأنزل السكينة أي الطمأنينة والثبات عليهم وأثابهم أي جزاهم على صدقهم ووفائهم فتحا قريبا هو صلح الحديبية وفتح خيبر، ومغانم[3] كثيرة يأخذونها وهي غنائم خيبر، وكان الله[4] عزيزا أي غالبا على أمره، حكيما في تدبيره لأوليائه.

هداية الآيتين :

من هداية الآيتين :

١ـ بيان فضل أهل بيعة الرضوان وكرامة الله لهم برضاه عنهم.

٢ـ ذكاء عمر وقوة فراسته إذ أمر بقطع الشجرة خشية أن تعبد، وكم عبدت من أشجار في أمة الإسلام في غيبة العلماء وأهل القرآن.

٣ـ مكافأة الله تعالى للصادقين الصابرين المجاهدين من عباده المؤمنين بخير الدنيا والآخرة.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا

(١) (إذ يبايعونك) ظرف متعلق بـ(رضي) والمضارع بمعنى الماضي وإنما جيء بالمضارع لاستحضار حالة المبايعة الجليلة وصورتها العظيمة. وكون الرضى حصل قبل انتهاء البيعة إيذان بفضلها وفضل أهلها.

(٢) (تحت الشجرة) التعريف للشجرة للعهد الذي عرفه أهلها حين كان النبي ﷺ جالساً في ظلها فبايع أصحابه كلهم إلا الجد بن قيس وكان منافقاً غير مؤمن فلم يبايع كما في التفسير، حيث كان لاصقاً بإبط ناقته.

(٣) المغانم الكثيرة: هي مغانم بلاد خيبر من أرض وأنعام ومتاع وحوايط وبساتين، ووصف الغنائم بجملة يأخذونها دال على تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة وبشارة لهم بأنه لم يهلك منهم أحداً قبل حصولهم على هذه الغنائم وكذلك كان والحمد لله.

(٤) هذه الجملة معترضة ذيل بها قوله تعالى: (وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها) لأن ما حصل لهم من نصر وخير كان من مظاهر عزة الله وعظيم حكمته.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات :

وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها: أي من الفتوحات الإسلامية التي وصلت الأندلس غربا.

فعجل لكم هذه : أي غنيمة خيبر.

وكف أيدي الناس عنكم : أي أيدي اليهود حيث هموا بالغارة على بيوت الصحابة وفيها أزواجهم وأولادهم وأموالهم فصرفهم الله عنهم.

ولتكون آية للمؤمنين : أي تلك الصرفة التي صرف اليهود المتآمرين عن الاعتداء على عيال الصحابة وهم غُيَّب في الحديبية أو خيبر آية يستدلون بها على كلاءة الله وحمايته لهم في حضورهم ومغيبهم.

ويهديكم صراطا مستقيما : أي طريقا في التوكل على الله والتفويض إليه في الحضور والغيبة لا اعوجاج فيه.

وأخرى لم تقدروا عليها : أي ومغانم أخرى لم تقدروا عليها وهي غنائم فارس والروم.

قد أحاط بها : أي فهي محروسة لكم إلى حين تغزون فارس والروم فتأخذونها.

ولو قاتلكم الذين كفروا : أي المشركون في الحديبية.

لولوا الأدبار : أي لانهزموا أمامكم واعطوكم أدبارهم تضربونها.

سنة الله التي قد خلت من قبل : أي هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين الصابرين سنة ماضية في كل زمان ومكان.

وهو الذي كف أيديهم عنكم :حيث جاء ثمانون من المشركين يريدون رسول الله والمؤمنين ليصيبوهم بسوء.

وأيديكم عنهم ببطن مكة : فأخذهم أصحاب رسول الله أسرى وأتوا بهم إلى رسول الله فعفا عنهم.

من بعد أن أظفركم عليهم : وذلك بالحديبية التي هي بطن مكة.

معنى الآيات:

ما زال السياق في ذكر إفضال الله تعالى وإنعامه على المؤمنين المبايعين الله ورسوله على مناجزة المشركين وقتالهم وأن لا يفروا فقد ذكر أنه أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم خيبر الكثيرة فعطف على السابق خبراً عظيماً آخر فقال ﴿وعدكم الله[1] مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه﴾ أي غنيمة خيبر، ﴿وكف أيدي الناس[2] عنكم﴾ وذلك أن يهود المدينة تمالأوا مع يهود خيبر وبعض العرب على أن يغيروا على دور الأنصار والمهاجرين بالمدينة ليقتلوا من بها وينهبوا ما فيها فكف تعالى أيديهم وصرفهم عما هموا به كرامة للمؤمنين، وقوله ﴿ولتكون[3] آية للمؤمنين﴾ أي تلك الصرفة التي صرف فيها قلوب من هموا بالغارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة وهم غُيَّب بالحديبية آية تهديهم إلى زيادة التوكل على الله والتفويض إليه والاعتماد عليه. وقوله ﴿ويهديكم صراطا مستقيما﴾ أي ويسددكم طريقا واضحا لا اعوجاج فيه وهو أن تثقوا في أموركم كلها بربكم فتتوكلوا عليه في جميعها فيكفيكم كل ما يهمكم، ويدفع عنكم مايضركم في مغيبكم وحضوركم. وقوله تعالى ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ أي وغنائم أخرى لم تقدروا وهي غنائم الروم وفارس. وقد أحاط الله بها فلم يفلت منها شيء حتى تغزوا تلك البلاد وتأخذوها كاملة، ﴿وكان الله على كل شيء قديرا﴾ ومن مظاهر قدرته أن يغنمكم وأنتم أقل عُددا وعددا غنائم أكبر دولتين في عالم ذلك الوقت فارس والروم. وقوله ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا﴾ أي ومن جملة انعامه عليكم أنه لو قاتلكم أهل مكة وأنتم ببطنها لنصركم الله عليهم ولانهزموا أمامكم مولينكم ظهورهم ولا يجدون ولياً يتولاهم بالدفاع عنهم ولا ناصراً ينصرهم لأنا سلطناكم عليهم. وقوله تعالى ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل﴾ أي في الأمم السابقة وهي لأنّ الله ينصر أولياءه على أعدائه لابد فكان هذا كالسنن الكونية التي

---

(١) هذه الجملة مستأنفة بيانياً إذ قوله تعالى: (وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها) يثير في نفس احدهم سؤالاً وهو: هل بعد هذا الفتح والغنائم من غنائم أخرى فكان الجواب: (وعدكم الله مغانم..) الخ فقولي في التفسير فعطف ليس هو من باب العطف النحوي وإنما هو من باب الإرداف والإلحاق.

(٢) هذه منة أخرى عظيمة حيث صرف عنهم قتال قريش لهم وإلا لكانوا يتعرضون لأتعاب قد تحول بينهم وبين ما أوتوه من فتح خيبر والفوز بغنائمها.

(٣) (ولتكون) هذه الجملة علة لأخرى مقدرة وهي ولتشكروه (ولتكون آية) الخ أي: كف أيدي الناس عنكم لتشكروه ولتكون آية.

لا تتبدل، وهو معنى قوله ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾، وقوله تعالى في الآية الأخيرة من هذا السياق (٢٤) ﴿وهو الذي كف أيديهم[1] عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ هذه منّة أخرى وكرامة عظيمة وهي أن قريشا بعثت بثمانين شابا إلى معسكر رسول الله في الحديبية لعلهم يصيبون غرة من الرسول وأصحابه فينالونهم بسوء فأوقعهم تعالى أسرى في أيدي المسلمين فمّن الرسول ﷺ عليهم بالعفو فكان ذلك سبب صلح الحديبية. وقوله ﴿وكان الله بما تعملون بصيرا﴾ أي مطلعا عالما بكل ما يجري بينكم فهو معكم لولايته لكم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- صدق وعد الله لأصحاب رسوله في الغنائم التي وُعِدوا بها فتحققت كلماته بعد وفاة رسول الله ﷺ وهي غنائم فارس والروم.

٢- كرامة الله للمؤمنين إذ حمى ظهورهم من خلفهم مرتين الأولى ما همّ به اليهود من غارة على عائلات وأسر الصحابة بالمدينة النبويّة، والثانية ما همَّ به رجال من المشركين للفتك بالمؤمنين ليلا بالحديبية إذ مكّن الله منهم رسوله والمؤمنين، ثم عفا عنهم رسول الله واطلق سراحهم فكان ذلك مساعدا قويا على تحقيق صلح الحديبية.

٣- بيان سنة الله في أنه ما تقاتل أولياء الله مع أعدائه في معركة إلا نصر الله أولياءه على أعدائه.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) روي عن أنس انه قال: إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غِرة النبي ﷺ وأصحابه فأخذناهم سِلماً فاستحييناهم فأنزل الله تعالى: (وهو الذي كف أيديهم) الآية.

فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات :

هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام : أي بالله ورسوله ومنعوكم من الوصول إلى المسجد الحرام.

والهدي معكوفا ان يبلغ محله[1] [2] : أي ومنعوا الهدي محبوسا حال بُلوغ محله من الحرم.

ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات : أي موجودون في مكة.

لم تعلموهم : أي لم تعرفوهم مؤمنين ومؤمنات.

أن تطأوهم : أي قتلا لهم عند قتالكم المشركين بمكة.

فتصيبكم منهم معرة بغير علم : أي إثم وديات قتل الخطأ وعتق أو صيام لَأَذِن لكم الله تعالى في دخول مكة.

ليدخل الله في رحمته من يشاء : أي لم يؤذن لكم في دخول مكة فاتحين ليدخل الله في الإسلام من يشاء.

لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما : أي لو تميزوا فكان المؤمنون على حدة والكافرون على حدة لأذنا لكم في الفتح وعذبنا الذين كفروا بأيديكم عذابا أليما وذلك بضربهم وقتلهم.

إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية : أي لعذبناهم إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية وهي الأنفة المانعة من قبول الحق ولذا منعوا الرسول وأصحابه من دخول مكة وقالوا كيف يقتلون أبناءنا ويدخلون بلادنا واللات والعزى ما دخلوها.

---

(١) جائز أن يكون : (أن يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدي، وجائز أن يكون معمولاً لحرف جر محذوف وهو (عن) أي عن أن يبلغ محله.

(٢) المحل : بكسر الحاء : مَحَلُّ الحِلّ مشتق من فعل حَلَّ ضد حرُم أي المكان الذي يحل فيه نحر الهدي، وذلك بمكة عند المروة بالنسبة للعمرة، ومنى بالنسبة للحج.

فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين	: أي فهمّ الصحابة أن يخالفوا أمر رسول الله بالصلح فأنزل الله سكينته عليهم فرضوا ووافقوا فتم الصلح .
وألزمهم كلمة التقوى	: أي ألزمهم كلمة لا إله إلا الله إذ هي الواقية من الشرك.
وكانوا أحق بها وأهلها	: أي أجدر بكلمة التوحيد وأهلا للتقوى .
وكان الله بكل شيء عليما	: أي من أمور عباده وغيرها ومن ذلك علمه بأهلية المؤمنين وأحقيتهم بكلمة التقوى «لا إله إلا الله» .

معنى الآيات :

ما زال السياق الكريم في الحديث عن صلح الحديبية فقال تعالى في المشركين ذاماً لهم عائبا عليهم صنيعهم ﴿هم الذين كفروا﴾ أي بالله ورسوله وصدوكم عن المسجد الحرام أن تدخلوه وأنتم محرمون والهدى معكوفاً أي وصدوا الهدى[1] والحال أنه محبوس يُنْتَظَرُ به دخول مكة لينحر وقوله تعالى ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات[2]﴾ بمكة لم تعلموهم لأنهم كانوا يخفون إسلامهم غالباً ، كراهة أن تطأوهم أثناء قتالكم المشركين فتصيبكم منهم معرّة بغير علم[3] منكم بهم والمعرة العيب والمراد به هنا التبعة وما يلزم من قتل المسلم خطأ من الكفارة والدية لولا هذا لأذن لكم في دخول مكة غازين فاتحين لها وقوله تعالى ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ أي لم يأذن لكم في القتال ورضي لكم بالصلح ليدخل في رحمته من يشاء فالمؤمنون نالتهم رحمة الله إذ لم يؤذوا بدخولكم مكة فاتحين والمشركون قد يكون تأخر الفتح سببا في إسلام من شاء الله تعالى له الإسلام لاسيما عندما رأوا رحمة الإسلام تتجلى في ترك القتال رحمة بالمؤمنين والمؤمنات حتى لا يتعرضوا للأذى فدين يراعي هذه الأخوة دين لا يحرم منه عاقل . وقوله تعالى ﴿لو تزيلوا﴾ أي[4] لو تميّز المؤمنون والمؤمنات عن المشركين بوجودهم في مكان خاص بهم لأذنّا لكم في دخول مكة وقتال المشركين وعذّبناهم بأيديكم عذاباً أليما وقوله ﴿إذ جعل[5] الذين كفروا في قلوبهم

---

(١) الهدي ، والهديّ بكسر الدال وتشديد الياء ، لغتان ، والواحدة هدية .

(٢) كسلمة بن هشام وعباس بن أبي ربيعة وأبي جندل بن سهيل . وأشباههم ، وجواب لولا محذوف تقديره : لأذن الله لكم في دخول مكة ولسلطانكم عليهم.

(٣) (بغير علم) فيه تفضيل للصحابة وإخبار عن كمالهم في الخلق والدين ، وهذا كقول النملة في سليمان وجنوده: (لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) . ,

(٤) (لو تزيلوا) اي : تميزوا وتفرقوا . و(لو) حرف امتناع لامتناع امتنع الشرط وهو التفرق ، فامتنع التسلط ، والقتل بالإذن للمسلمين بقتالهم وقتلهم . وفي هذا دليل على انه لايجوز إغراق باخرة للكافرين فيها مسلمون ، ولا ضرب حصن بالقذائف داخله مسلمون وهو ما رآه مالك .

(٥) يجوز أن يكون الظرف ، (إذ) متعلقاً بقوله تعالى : (لعذبنا) وجائز أن يعلق بمحذوف تقديره : واذكروا إذ جعل الخ .

الحمية حمية الجاهلية[1]﴾ هذا تعليل للإذن بقتال المشركين في مكة وتعذيبهم العذاب الأليم لولا وجود مؤمنين ومؤمنات بها يؤذيهم ذلك والمراد من الحمية الأنفة والتعاظم وما يمنع من قبول الحق والتسليم به وهذه من صفات أهل الجاهلية فقد قالوا، كيف نسمح لهم بدخول بلادنا وقد قتلوا أبناءنا واللات والعزى ما دخلوا علينا أبداً، وقوله تعالى ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ وذلك لما همّ المؤمنون بعدم قبول الصلح لما فيه من التنازل الكبير للمشركين وهم على الباطل والمؤمنون على الحق فلما حصل هذا في نفوس المؤمنين أنزل الله سكينته عليهم وهي الطمأنينة والوقار والحلم فرضوا بالمصالحة وتمت وكان فيها خير كثير حتى قيل فيها إنها فتح أوّلي أو فاتحة فتوحات لا حدّ لها. وقوله تعالى ﴿والزمهم كلمة التقوى[2] وكانوا أحق بها وأهلها﴾ أي وشرف الله وأكرم المؤمنين بإلزامهم التشريعي بكلمة لا إله إلاّ الله. إذ هي كلمة التقوى أي الواقية من الشرك والعذاب في الدارين وجعلهم أحق بها وأهلها. أي أجدر من غيرهم بكلمة التوحيد وأكثر أهلية للتقوى وكان الله بكل شيء عليما ومن ذلك علمه بأهلية أصحاب رسول الله بما جعلهم أهلا له من الإيمان والتقوى.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- بيان حكم المحصر وهو من منع من دخول المسجد الحرام وهو محرم بحج أو بعمرة فإنه يتحلل بذبح هدي ويعود إلى بلاده، ويذبح الهدى حيث أُحصِر، وليس واجبا إدخاله إلى الحرم.

٢- الأخذ بالحيطة في معاملة المسلمين حتى لايؤذى مؤمن أو مؤمنة بغير علم.

٣- بيان أن كلمة التقوى هي لا إله إلاّ الله.

٤- الإشارة إلى ما أصاب المسلمين من ألم نفسي من جراء الشروط القاسية التي اشترطها ممثل قريش ووثيقة الصلح. وهذا نص الوثيقة وما تحمله من شروط لم يقدر عليها إلاّ رسول الله بما آتاه الله من العلم والحكمة والحلم والصبر والوقار، ولمّا أنزل الله ذلك على المؤمنين من السكينة فحملوها وارتاحت نفوسهم لها نص الوثيقة: «ورد أن قريشا لما نزل النبي ﷺ الحديبية بعثت إليه ثلاثة

---

(١) قال الزهري، حميتهم أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح بسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من دخول مكة.

(٢) ورد في (كلمة التقوى) آثار منها: أنها لا إله إلا الله، ومنها أنها لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومنها أنها: لا إله إلا الله والله أكبر ومنها أنها لا إله إلا اولله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، والكل حق لا باطل فيه.

رجال هم سهيل بن عمرو القرشي ، وحويطب بن عبدالعزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن يخلي له قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام فقبل ذلك وكتبوا بينهم كتاباً فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا : ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ، فكتب ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة فقال النبي ﷺ اكتب ما يريدون فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم فأنزل الله السكينة عليهم فتوقّروا وحلموا وتم الصلح على ثلاثة أشياء هي :

١ـ أنَّ من أتاهم من المشركين مسلماً ردوه إليهم .

٢ـ أنَّ من أتاهم من المسلمين لم يردوه إليهم .

٣ـ أن يدخل الرسول والمؤمنون مكة من عام قابل ويقيمون بها ثلاثة أيام لا غير ولا يدخلها بسلاح .

فلما فرغ من الكتاب قال ﷺ لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا .

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات :

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق: أي جعل الله رؤيا رسوله التي رآها في النوم عام الحديبية حقاً.

لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين: هذا مضمون الرؤيا أي لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين .

محلقين رؤوسكم ومقصرين: أي حالقين جميع شعوركم أو مقصرينها .

لا تخافون : أي أبداً حال الإحرام وبعده.

فعلم ما لم تعلموا : أي في الصلح الذي تَمَّ، أي لم تعلموا من ذلك المعرة التي كانت تلحق المسلمين بقتالهم إخوانهم المؤمنين وهم لا يشعرون.

فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا : هو فتح خيبر وتحققت الرؤيا في العام القابل.

هو الذي أرسل رسوله بالهدى: فلذا لا يخلفه رؤياه بل يصدقه فيها.

ودين الحق

ليظهره على الدين كله : أي ليُعليه على سائر الأديان بنسخ الحق فيها، وإبطال الباطل فيها، أو بتسليط المسلمين على أهلها فيحكمونهم.

وكفى بالله شهيدا : أي انك مرسل بما ذكر أي بالهدى ودين الحق.

معنى الآيات:

ما زال السياق في صلح الحديبية وما تم فيه من أحداث فقال تعالى ﴿لقد صدق الله رسوله﴾ أي محمداً ﷺ ﴿الرؤيا بالحق﴾[1] [2] أي الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ وأخبر بها أصحابه عند خروجهم من المدينة إلى مكة فقد أخبر بها أصحابه فسروا بذلك وفرحوا ولما تم الصلح بعد جهاد سياسي وعسكري مرير، وأمرهم الرسول أن ينحروا ويحلقوا اندهشوا لذلك وقال بعضهم أين الرؤيا التي رأيت؟ ونزلت سورة الفتح عند منصرفهم من الحديبية وفيها قوله تعالى ﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله[3] آمنين محلقين[4] رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾، وقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق فلما جاء العام القابل وفي نفس الأيام من شهر القعدة خرج رسول الله والمسلمون محرمين يُلبون وأخلت لهم قريش المسجد الحرام فطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة وتحللوا من عمرتهم فمنهم المحلق ومنهم المقصر.

---

(١) روي أن أبا بكر رضي الله عنه قال: إن المنام لم يكن موقتا بوقت أي: فقد تتأخر الرؤيا سنوات أو شهوراً أو أياماً فكان ما بين رؤيا رسول الله ﷺ وظهور مصداقها في الواقع سنة كاملة.

(٢) (بالحق) الباء للملابسة، وهو ظرف مستقر وقع صفة لمصدر محذوف تقديره أي: صدقاً ملابساً للحق.

(٣) (إن شاء الله) هل هذا الاستثناء من جملة ما رآه النبي ﷺ في منامه فأعاده كما سمعه في الرؤيا ويكون هذا تعليماً من الله عز وجل للمؤمنين أن يقولوا مثله في كل ما هو مستقبل من الأقوال والأعمال أو قاله رسول الله ﷺ عملا بقول الله تعالى: (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله).

(٤) (آمنين) و(محلقين) و(مقصرين): منصوبة على الحال، وجملة (لاتخافون) في موضع الحال أيضا مؤكدة لـ (آمنين) الحال.

وقوله تعالى فعلم ما لم تعلموا فأثبت الصلح وقرره لأنه لو كان قتال ولم يكن صلح لهلك المؤمنون بمكة والمؤمنات بالحرب وتحصل بذلك معرة كبرى للمسلمين الذين قتلوا اخوانهم في الإسلام هذا من بعض الأمور التي اقتضت الصلح وترك القتال وقوله وجعل من دون ذلك فتحا قريبا الصلح[1] فتح، وفتح خيبر فتح، وفتح مكة فتح، وكلها من الفتح القريب. وقوله هو الذي أرسل رسوله أي محمد بالهدى ودين الحق أي الإسلام فكيف إذاً لا يصدقه رؤياه كما ظن البعض وكفى بالله شهيداً على أنك يا محمد مرسل بما ذكر تعالى من الهدى والدين الحق وإظهاره على الدين كله بنسخ الحق الذي فيه وابطال الباطل الذي الصق به. أو بتسليط المسلمين على قهر وحكم أهل تلك الأديان الباطلة وقد حصل من هذا شيء كبير.

هداية الآيتين:

من هداية الآيتين:

١ـ تقرير أن رؤيا الأنبياء حق.

٢ـ تعبير الرؤيا قد يتأخر سنة أو أكثر.

٣ـ مشروعية الحلق والتقصير للتحلل من الحج أو العمرة وإن الحلق أفضل لتقدمه.

٤ـ مشروعية قول إن شاء الله في كل قول أو عمل يراد به المستقبل.

٥ـ الإسلام هو الدين الحق وما عداه فباطل.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

---

(١) ومن أنواع الفتح القريب ما تم بالهدنة من دخول الناس في الإسلام إذ اصبح الناس آمنين فيتصلون بالمؤمنين ويتعرفون إلى الإسلام ويدخلون فيه، فدخل في الإسلام أعداد هائلة في هذه الهدنة.

شرح الكلمات:

محمد رسول الله والذين معه	: أي أصحابه رضوان الله عليهم.
أشداء على الكفار	: أي غلاظ لا يرحمونهم.
رحماء بينهم	: أي متعاطفون متوادون كالوالد مع الولد.
تراهم ركعا سجدا	: أي تبصرهم ركعاً سجداً أي راكعين ساجدين.
يبتغون فضلا من الله ورضوانا	: أي يطلبون بالركوع والسجود ثوابا من ربهم هو الجنة ورضوانا هو رضاه عز وجل.
سيماهم في وجوههم	: أي نور وبياض يعرفون به يوم القيامة انهم سجدوا في الدنيا.
ذلك	: أي الوصف المذكور.
مثلهم في التوراة	: أي صفتهم في التوراة كتاب موسى عليه السلام.
أخرج شطأه	: أي فراخه.
فآزره	: أي قواه وأعانه.
فاستغلظ فاستوى	: أي غلظ واستوى أي قَوِيَ.
على سوقه	: جمع ساق أي على أصوله.
يعجب الزراع	: أي زارعيه لحسنه.
ليغيظ بهم الكفار	: هذا تعليل أي قواهم وكثرهم ليغيظ بهم الكفار.

معنى الآيات:

لما أخبر تعالى انه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله شهادة منه بذلك أخبر أيضا عنه بما يؤكد تلك الشهادة فقال تعالى ﴿محمد[1] رسول الله والذين معه﴾ من أصحابه ﴿أشداء على الكفار﴾ أي غلاظ قساة عليهم، وذلك لأمرين الأول انهم كفروا بالله وعادوه ولم يؤمنوا به ولم يجيبوه، والله يبغضهم لذلك فهم إذاً غلاظ عليهم لذلك والثاني أن الغلظة والشدة قد تكون سببا في هدايتهم لأنهم يتألمون بها، ويرون خلافها مع المسلمين فيسلمون فيرحمون ويفوزون. وقوله تعالى ﴿رحماء بينهم﴾ أي فيما بينهم يتعاطفون يتراحمون فَتَرَىٰ أحدهم يكره أن يمس جسمه أو ثوبه جسم الكافر أو ثوبه، وتراه مع المسلم إذا رآه صافحه وعانقه ولاطفه

(١) جائز الوقف على (رسول الله) مبتدأ وخبر، ويبدأ الكلام: (والذين معه أشداء..) الخ وهو الأشبه، وجائز أن يكون: (والذين معه) عطف على (محمد رسول الله) والخبر: (أشداء..) الخ.

وأعانه وأظهر له الحب والود. وقوله تعالى ﴿تراهم﴾ أي تبصرهم أيها المخاطب ﴿ركعاً سجداً﴾[1] أي راكعين ساجدين في صلواتهم ﴿يبتغون﴾ أي يطلبون بصلاتهم بعد إيمانهم وتعاونهم وتحاببهم وتعاطفهم مع بعضهم، يطلبون بذلك ﴿فضلا من ربهم ورضوانا﴾ أي الجنة ورضا الله. وهذا أسمى ما يطلب المؤمن أن يدخله الله الجنة بعد أن ينقذه من النار ويرضى عنه. وقوله ﴿سيماهم[2] في وجوههم من أثر السجود﴾ أي علامات إيمانهم وصفائهم في وجوههم من أثر السجود إذ يبعثون يوم القيامة غُراً محجلين من آثار الوضوء ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ وفي الدنيا عليهم سيما التقوى والصلاح والتواضع واللين والرحمة. وقوله تعالى ﴿ذلك﴾ أي المذكور ﴿مثلهم في[3] التوراة﴾ ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه[4]﴾ أي فراخه ﴿فآزره﴾ أي قواه وأعانه ﴿فاستغلظ﴾ أي غلظ ﴿فاستوى﴾ أي قوي ﴿على سوقه﴾ جمع ساق ما يحمل السنبلة من أصل لها ﴿يعجب الزراع﴾ أي الزارعين له وذلك لحسنه وسلامة ثمرته وقوله تعالى ﴿ليغيظ بهم[5] الكفار﴾ أي قواهم وكثرهم من أجل أن يغيظ بهم الكفار ولذا ورد عن مالك بن أنس رحمه الله تعالى أن من يغيظه أصحاب رسول الله فهو كافر وقوله ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجراً عظيما﴾ هو الجنة. هذا وعد خاص بأصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم وهناك وعد عام لسائر المؤمنين والمؤمنات وذلك في آيات أخرى مثل آية المائدة ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

هداية الآية الكريمة:

من هداية الآية الكريمة:

١- تقرير نبوة رسول الله وتأكيد رسالته.

٢- بيان ما كان عليه رسول الله وأصحابه من الشدة والغلظة على الكفار والعطف والرحمة على أهل الإيمان وهذا مما يجب الأتساء بهم فيه والاقتداء.

٣- بيان فضل الصلاة ذات الركوع والسجود والطمأنينة والخشوع.

---

(١) إخبار بكثرة ركوعهم وسجودهم وهو كذلك، إذ لم تر الدنيا أكثر من المسلمين ركوعاً وسجودا من سائر الأمم التي دانت لله بالإسلام.

(٢) السيما: (العلامة ولها ثلاثة مظاهر، الأول: هو يبوسة في الجبهة ولايتعمدونها ولكنها تحدث من كثرة السجود على الأرض، والثاني: الأثر النفسي من التواضع والخشوع ونور الصلاح. والثالث: نور يوم القيامة يعلو وجوههم ويشهد له قوله تعالى (نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم) الآية.

(٣) موجود في التوراة قبل تحريفها إذ فيها نعوت هذه الأمة ونعوت نبيها محمد ﷺ وهي إلى الآن واليهود يتأولونها هروباً من الحق حتى لا يُلزموا به.

(٤) فراخ الزرع فروع الحبة منه.

(٥) الجملة تعليلية لما سبقها من صفات أصحاب النبي ﷺ أي: وهبهم ذلك الكمال ليغيظ بهم الكفار.

٤ـ صفة أصحاب رسول الله في كل من التوراة والإنجيل ترفع من درجتهم وتعلي من شأنهم.

٥ـ بيان أن أصحاب رسول الله ﷺ بدأوا قليلين ثم أخذوا يكثرون حتى كثروا كثرة أغاظت الكفار.

٦ـ بُغض أصحاب رسول الله ﷺ يتنافى مع الإيمان منافاة كاملة لاسيما خيارهم وكبارهم كالخلفاء الراشدين الأربعة والمبشرين بالجنة العشرة وأصحاب بيعة الرضوان، وأهل بدر قبلهم. ولذا روي عن مالك رحمه الله تعالى: أن من[1] يغيظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

وآياتها ثماني عشرة آية

وهي بداية المفصل[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

(١) الرواية كما رواها القرطبي هي: روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير قال كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسوله الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية: (محمد رسول الله والذين معه..) حتى بلغ: (يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية. يريد ألزمته بالكفر.

(٢) أشهر الأقوال أن أوّل المفصل (الحجرات) وأول وسط المفصل (عبس) وأول قصار المفصل: (والضحى) هذا أشهر أقوال المالكية، وطلب هذا لأجل الصلاة المفروضة ففي الصبح يستحب القراءة بطوال المفصل وفي الظهر والعشاء بمتوسطه وفي المغرب بقصاره.

شرح الكلمات:

يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا : أي لا تتقدّموا بقول ولا فعل إذ هو من قدم بمعنى تقدم.

بين يدي الله ورسوله : كمن ذبح يوم العيد قبل أن يذبح رسول الله ﷺ، وكإرادة أحد الشيخين تأمير رجل على قوم قبل استشارة الرسول ﷺ.

واتقوا الله إن الله سميع عليم : أي خافوا الله انه سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم.

لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي : أي إذا نطقتم فوق صوت النبيّ إذا نطق.

ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض : أي إذا ناجيتموه فلا تجهروا في محادثتكم معه كما تجهرون فيما بينكم إجلالا له ﷺ وتوقيراً وتقديراً.

أن تحبط أعمالكم : أي كراهة أن تبطل أعمالكم فلا تُثابون عليها.

وأنتم لا تشعرون : بحبوطها وبطلانها. إذ قد يصحب ذلك استخفاف بالنبيّ ﷺ لا سيما إذا صاحب ذلك إهانة وعدم مبالاة فهو الكفر والعياذ بالله.

يغضون أصواتهم عند رسول الله : أي يخفضونها حتى لكأنهم يسارونه ومنهم أبو بكر رضي الله عنه.

امتحن الله قلوبهم للتقوى : أي شرحها ووسعها لتتحمل تقوى الله. مأخوذ من محن الأديم إذا وسعه.

لهم مغفرة وأجر عظيم : أي مغفرة لذنوبهم وأجر عظيم وهو الجنة.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾[1] لو بحثنا عن المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها لتجلت لنا واضحة إذا رجعنا بالذاكرة إلى موقف عمر رضي الله عنه وهو يريد أن لا يتم صلح بين المؤمنين والمشركين، وإلى موقف الصحابة كافة من عدم التحلل من إحرامهم ونحر هداياهم والرسول يأمر وهُم لا يستجيبون حتى تقدمهم ﷺ فنحر هديه ثم نحروا بعده وتحللوا، إذ تلك المواقف التي أشرنا إليها فيها معنى تقديم الرأي والقول بين يدي الله ورسوله وفي ذلك مضرة لايعلم مداها إلاّ الله، ولما انتهت تلك الحال وذلك الظرف الصعب أنزل الله تعالى قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾

---

(١) ذكر لسبب نزول هذه السورة عدة روايات منها ما ذكره الواحدي ورواه البخاري وهو أن ركباً من بني تميم قدم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر أمّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي فقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك (يا أيها الذين آمنوا..) الخ.

أي بالله رباً وإلهاً وبالإسلام شرعة ودينا وبمحمد نبيًا ورسولا ناداهم بعنوان الإيمان ليقول لهم ناهيا ﴿لاتقدموا بين[1] يدي الله ورسوله﴾ أي قولا ولا عملا ولا رأيا ولا فكرا أي لا تقولوا ولا تعملوا إلا تبعا لما قال الله ورسوله، وشرع الله ورسوله ﴿واتقوا الله﴾ في ذلك فإن التقدم بالشيء قبل أن يشرع الله ورسوله فيه معنى أنكم أعلم وأحكم من الله ورسوله وهذه زلّة كبرى وعاقبتها سوأى. ولذا قال واتقوا الله إن الله سميع﴾ أي لأقوالكم ﴿عليم﴾ بأعمالكم وأحوالكم. ومن هنا فواجب المسلم أن لا يقول ولا يعمل[2] ولا يقضي ولا يُفتي برأيه إلا إذا علم قول الله ورسوله وحكمهما وبعد أن يكون قد علم أكثر أقوال الله والرسول وأحكامهما، فإذا لم يجد من ذلك شيئا اجتهد[3] فقال أو عمل بما يراه أقرب إلى رضا الله تعالى فإذا لاح له بعد ذلك نص من كتاب أو سنة عدل عن رأيه وقال بالكتاب والسنة. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (١) أما الآية الثانية (٢) وهي قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ فإنها تطالب المسلم بالتأدب مع رسول الله ﷺ فأولا نهاهم رضي الله عنهم عن رفع أصواتهم فوق صوت رسول الله ﷺ إذا هم تحدثوا معه وأوجب عليهم إجلال النبي وتعظيمه وتوقيره بحيث يكون صوت أحدهم إذا تكلم مع رسول الله أخفض من صوت الرسول ﷺ ولقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا كلّم رسول الله يساره الكلام مسارة وثانيا نهاهم إذا هم ناجوا رسول الله ﷺ أن لايجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض بل يجب عليهم توقيره وتعظيمه. وأعلمهم أنه يخشى عليهم إذا هم لم يوقروا رسول الله ولم يجلوه أن تحبط أعمالهم كما تحبط بالشرك والكفر وهم لا يشعرون. إذْ رَفْعُ الصوت للرسول ونداؤه بأعلى الصوت يا محمد يا محمد أو يا نبيّ الله ويارسول الله وبأعلى الأصوات إذا صاحبه استخفاف أو إهانة وعدم مبالاة صار كفراً محبطاً للعمل قطعا. وفي الآية الثالثة (٣) يثني الله تعالى على أقوام يغضون أصواتهم أي يخفضونها عند رسول الله أي في حضرته وبين يديه كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما هؤلاء يخبر تعالى أنه امتحن قلوبهم للتقوى أي وسعها وشرحها

(١) هذه السورة نزلت في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب زيادة على ما تضمنت من الأحكام الشرعية والهدايات القرآنية.

(٢) ومن هنا قال العلماء: لا يحل لامرىء مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه.

(٣) شاهده حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال له رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن (بِم تحكم؟ قال بكتاب الله تعالى قال ﷺ فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ فإن لم تجد؟ قال رضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ).

(٤) روى البخاري (أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال شر، كان: يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره انه قال كذا وكذا، فقال: إذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة.

لتحمل تقوى الله والرسول ﷺ يقول التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثا[1]، ويذكر لهم بشرى نعم البشرى وهي أن لهم منه تعالى مغفرة لذنوبهم، واجراً عظيما يوم يلقونه وهو الجنة دار المتقين جعلنا الله منهم بفضله ورحمته.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ لا يجوز للمسلم أن يقدم رأيه أو اجتهاده على الكتاب والسنة فلا رأي ولا اجتهاد إلاّ عند عدم وجود نص من كتاب أو سنة وعليه إذا اجتهد أن يكون ما اجتهد فيه أقرب إلى مراد الله ورسوله، أي الصق بالشرع، وإن ظهر له بعد الاجتهاد نص من كتاب أو سنة عاد إلى الكتاب والسنة وترك رأيه أو اجتهاده فوراً وبلا تردد.

٢ـ بما أن الله تعالى قد قبض إليه نبيّه ولم يبق بيننا رسول الله نتكلم معه أو نناجيه فنخفض أصواتنا عند ذلك فإن علينا إذا ذكر رسول الله بيننا أو ذكر حديثه أن نتأدب عند ذلك فلا نضحك ولا نرفع الصوت، ولا نظهر أي استخفاف أو عدم مبالاة وإلا يخشى علينا أن تحبط أعمالنا ونحن لا نشعر.

٣ـ على الذين يغشون مسجد رسول الله ﷺ أن لا يرفعوا أصواتهم فيه إلا لضرورة درس أو خطبة أو أذان أو إقامة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

(١) هذا بعض حديث صحيح أخرجه غير واحد من أصحاب السنن.

ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

شرح الكلمات :

إن الذين ينادونك من وراء الحجرات : أي حجرات نسائه والذين نادوه وفد من أعراب بني تميم منهم الزُبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن.

أكثرهم لا يعقلون : أي فيما فعلوه بمحلك الرفيع ومقامك السامي الشريف.

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم : أي ولو أنهم انتظروك حتى تخرج بعد قيامك من قيلولتك.

لكان خيراً لهم : أي من ذلك النداء بأعلى أصواتهم من كل أبواب الحجرات.

والله غفور رحيم : أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذ أساءوا مرتين الأولى برفع أصواتهم والثانية كانوا ينادونه ويقولون أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين.

فاسق بنبأ : أي ذو فسق وهو المرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب والنبأ الخبر ذو الشأن.

فتبيّنوا : أي تثبتوا قبل أن تقولوا أو تفعلوا أو تحكموا.

أن تصيبوا قوما بجهالة : أي خشية إصابة قوم بجهالة منكم.

فتصبحوا على ما فعلتم نادمين : أي فتصيروا على فعلكم الخاطىء نادمين.

واعلموا أن فيكم رسول الله : أي فاحذروا أن تكذبوا أو تقولوا الباطل فإن الوحي ينزل وتفضحون بكذبكم وباطلكم.

لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم : أي لوقعتم في المشقة الشديدة والإثم أحيانا.

وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان : أي بغّض إلى قلوبكم الكفر والفسوق كالكذب والعصيان بترك واجب أو فعل محرم.

أولئك هم الراشدون : أي الذين فعل بهم ما فعل من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر وما ذكر معه هم الراشدون أي السالكون سبيل الرشاد.

فضلا من الله ونعمة	: أي أفضل بذلك عليهم فضلا وأنعم إنعاما ونعمة.
والله عليم حكيم	: أي عليم بخلقه وما يعملون حكيم في تدبيره لعباده هذا بعامة وبخاصة عليم بأولئك الراشدين حكيم في إنعامه عليهم.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تأديب المؤمنين إزاء نبيهم ﷺ فقدعاب تعالى أقوامامعهم جفاء وغلظة قيل انهم وفد من أعراب بني تميم منهم الزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن جاءوا والرسول قائل وقت القيلولة ووقفوا على أبواب الحجرات[1] ينادون بأعلى أصواتهم يا محمد يا محمد ﷺ أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية الكريمة تأديبا لهم ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ حجرات نساء الرسول ﷺ وكانت أبواب الحجرات إلى المسجد. ﴿أكثرهم لا يعقلون[2]﴾ أي فيما فعلوه بمقام الرسول الشريف ومكانته الرفيعة. ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم﴾ بعد هبوبك من قيلولتك ﴿لكان خيراً[3]﴾ أي من ذلك النداء بتعالي الأصوات من وراء الحجرات وقوله تعالى ﴿والله غفور رحيم﴾أي غفور لمن تاب منهم رحيم بهم إذ لم يعجل لهم العقوبة وفتح لهم باب التوبة وأدبهم ولم يعنف ولم يغلظ، وقوله تعالى في الآية الثالثة من هذا السياق (٦) ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق[4] بنبإ فتبينوا أن تصيبوا[5] قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ هذه الآية وإن كان لها سبب في نزولها وهو أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أموالهم، وكان بينهم وبين أسرة الوليد عداء في الجاهلية فذكره الوليد وهاب أن يدخل عليهم دارهم وهذا من وسواس الشيطان فرجع وستر على نفسه الخوف الذي أصابه فذكر انهم منعوه الزكاة وهموا بقتله فهرب منهم فغضب رسـول الله ﷺ وَهمَّ بغزوهم. وما زال كذلك حتى أتى وفد منهم يسترضي رسول الله ويستعتب عنده خوفا من أن يكون قد بلغه عنهم سوء فأخبروه بأنهم على العهد وأن الوليد رجع من الطريق ولم يصل إليهم وبعث الرسول خالد بن الوليد من جهة فوصل

---

(١) الحجرات: جمع حجرة وهي تسع تدخل ضمن البيت النبوي.

(٢) هذا الاحتراس دال على أن من الوفد من كان متأدباً مع رسول الله ﷺ فلم يناد نداءهم بصوت عال وألفاظ نابية لا تليق بمقام الرسول ﷺ.

(٣) أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم وكان النبي ﷺ لايحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

(٤) فسر الفاسق. بالكاذب وبالمعلن بالذنب، وبالذي لا يستحي من الله وهو قابل لكل ما ذكر.

(٥) أن تصيبوا: أي: لئلا تصيبوا.

إليهم قبل المغرب فإذا بهم يؤذنون ويصلون المغرب والعشاء فعلم أنهم لم يرتدوا وأنهم على خير والحمد لله . وجاء بالزكوات وأنزل الله تعالى هذه الآية قلت إن هذه الآية وإن نزلت في سبب معيـــن فإنهـــا عامة وقاعدة أساسية هامة فعلى الفرد والجماعة والدولة أن لا يقبلوا من الأخبار التي تنقل إليهم ولا يعملوا بمقتضاها إلا بعد التثبت والتبين الصحيح كراهية أن يصيبوا فردا أو جماعة بسوء بدون موجب لذلك ولا مقتضٍ الاقالة سوء وفرية قد يريد بها صاحبها منفعة لنفسه بجلب مصلحة أو دفع مضرة عنه . فالأخذ بمبدأ التثبت والتبين عند سماع خبر من شخص لم يعرف بالتقوى والاستقامة الكاملة والعدالة التامة واجب صونا لكرامة الأفراد وحماية لأرواحهم وأموالهم . والحمد لله على شرع عادل رحيم كهذا . فقوله ﴿إن جاءكم فاسق﴾ المراد بالفاسق من يرتكب كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب مثلا ، والنبأ الخبر ذو الشأن والتبيّن التثبت وقوله ﴿أن تصيبـوا قوما بجهالة﴾ أن تصيبوهم في أبدانهم وأموالهم بعدم علم منكم وهي الجهالة وقوله ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ أي من جرّاء ما اتخذتم من إجراء خاطىء ، وقوله تعالى في الآية (٧) ﴿واعلموا﴾ يلفت الربّ تعالى نظر المسلمين إلى حقيقة هم غافلون عنها وهو وجود الرسول ﷺ حيّاً بينهم ينزل عليه الوحي فإن هذه حال تتطلب منهم التزام الصدق في القول والعمل وإلّا يفضحهم الوحي فوراً إن هم كذبوا في قول أو عمل كما فضح الوليد لما أخبر بغير الحق . هذا أولا وثانيا لو كان الرسول ﷺ يطيعهم في كل ما يرونه ويقترحونه لوقعوا في مشاكل تُعرّضهم لمشاق لا تطاق، بل وفي آثام عظام . هذا معنى قوله تعالى ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم[1] في كثير من الأمر لعنتم﴾ وقوله ﴿ولكن الله حبّب[2] إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ فوقاكم كثيرا من أن تكذبوا على رسولكم أو تقترحوا عليه أو تفرضوا آراءكم . وقوله ﴿أولئك هم الراشدون[3]﴾ أي أولئك أصحاب رسول الله هم السالكون سبيل الرشاد فلا يتهوكون ولا يضلون وقوله﴿فضلا[4] من الله ونعمة﴾ أي هدايتهم كانت فضلا من الله ونعمة ، والله عليم بهم وبنياتهم وبواعث نفوسهم حكيم[5] في تدبيره فأهّل أصحاب رسول الله

---

(١) لو: حرف امتناع لامتناع ، امتنعت طاعته ﷺ لهم فامتنع عنتهم الذي هو: الوقوع في المشقة والشدة.

(٢) (لكن) هذه الاستدراكية العاطفة، وهذا الاستدراك ناشيء عن كون بعضهم يحب أن يطيعه رسول الله ﷺ فأعلموا أن الله حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين، فكفاهم خواطِر السوء، ورغبات الباطل، فلم يبق مجال للاقتراحات التي تسيء إليهم وإلى جناب نبيهم ﷺ .

(٣) الرشاد، والرشد: ما كان خلاف الغيّ، والباطل والسيء.

(٤) نصب: (فضلا ونعمة) على المفعولية المطلقة.

(٥) جملة: (والله عليم حكيم) تذييلية لما تقدم من قوله: (واعلموا أن فيكم رسول الله) إلى قوله: (ونعمة).

للخير وأضفاه عليهم فهم أفضل هذه الأمة على الاطلاق ولا مطمع لأحد أتى بعدهم أن يفوقهم في الفضل والكمال في الدنيا ولا في الآخرة فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين وعنا معهم آمين.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- بيان سمو المقام المحمدي وشرف منزلته ﷺ.

٢- وجوب التثبت في الأخبار ذات الشأن التي قد يترتب عليها أذى أو ضرر بمن قيلت فيه، وحرمة التسرع المفضي بالأخذ بالظنة فيندم الفاعل بعد ذلك في الدنياوالآخرة.

٣- من أكبر النعم على المؤمن تحبيب الله تعالى الإيمان إليه وتزيينه في قلبه، وتكريه الكفر إليه والفسوق والعصيان وبذلك أصبح المؤمن أرشد الخلق بعد أصحاب رسول ﷺ.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ

وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات :

وإن طائفتان من المؤمنين : أي جماعاتان قلّ أفرادهما أو كثروا من المسلمين.

اقتتلوا فأصلحوا بينهما : أي هموا بالاقتتال أو باشروه فعلا فأصلحوا ما فسد بينهما.

فإن بغت إحداهما على الأخرى : أي تعدت بعد المصالحة بأن رفضت ذلك ولم ترض بحكم الله.

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله : أي قاتلوا أيها المؤمنون مجتمعين الطائفة التي بغت حتى ترجع إلى الحق.

فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل : أي رجعت إلى الحق بعد مقاتلتها فأصلحوا بينهما بالعدل أي بالحق.

وأقسطوا إن الله يحب المقسطين : أي وأعدلوا في حكمكم إن الله يحب أهل العدل.

إنما المؤمنون إخوة : أي في الدين الإسلامي.

فأصلحوا بين أخويكم : أي إذا تنازعا شيئا وتخاصما فيه.

واتقوا الله لعلكم ترحمون : أي خافوا عقابه رجاء أن ترحموا إن أنتم اتقيتموه.

لايسخر قوم من قوم : أي لا يزدر قوم منكم قوما آخرين ويحتقرونهم.

عسى أن يكونوا خيرا منهم : أي عند الله تعالى والعبرة بما عند الله لا ما عند الناس.

ولا تلمزوا أنفسكم : أي لا تعيبوا بعضكم بعضا فإنكم كفرد واحد.

ولا تنابزوا بالألقاب : أي لا يدعو بعضكم بعضا بلقب يكرهه نحو يا فاسق ياجاهل.

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان : أي قبح اسم الفسوق يكون للمرء بعد إيمانه وإسلامه.

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون : أي من لمز ونبز المؤمنين فأولئك البُعداء هم الظالمون.

اجتنبوا كثيرا من الظن : أي التهم التي ليس لها ما يوجبها من الأسباب والقرائن.

إن بعض الظن إثم : أي كظن السوء بأهل الخير من المؤمنين.

ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا : أي لا تتبعوا عورات المسلمين وما بهم بالبحث عنها.

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا : أي لا يحسن به حب أكل لحم أخيه ميتا ولا حيا معا.

فكرهتموه : أي وقد عرض عليكم الأول فكرهتموه فاكرهوا أي كما كرهتم أكل لحمه ميتا فاكرهوه حيا وهو الغيبة.

وجعلناكم شعوبا وقبائل : أي جمع شعب والقبيلة دون الشعب.

لتعارفوا : أي ليعرف بعضكم بعضا فتعارفوا لا للتفاخر بعلو الأنساب.

إن أكرمكم عند الله أتقاكم : أي أشدكم تقوى لله بفعل أوامره وترك نواهيه هو أكرم عند الله.

إن الله عليم خبير : أي عليم بكم وبأحوالكم خبير بما تكونون عليه من كمال ونقص لا يخفى عليه شيء من أشياء العباد.

معنى الآيات :

قوله تعالى ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾[1] الآيات ما زال السياق الكريم في طلب تأديب المسلمين وتربيتهم واعدادهم للكمال الدنيوي والأخروي ففي الآيتين (٩) و (١٠) من هذا السياق يرشد الله تعالى المسلمين إلى كيفية علاج مشكلة النزاع المسلح بين المسلمين الذي قد يحدث في المجتمع الإسلامي بحكم الضعف الإنساني من الوقت إلى الوقت وهو مما يكاد يكون من ضروريات الحياة البشرية وعوامله كثيرة لا حاجة إلى ذكرها فقال تعالى ﴿وإن طائفتان﴾ أي جماعتان ﴿من المؤمنين اقتتلوا﴾ ولو كان ذلك بين اثنين فقط ﴿فأصلحوا﴾ أيها المسلمون ﴿بينهما﴾[2] بالقضاء على أسباب الخلاف وترضية الطرفين بما هو حق وخير وليس هذا

(١) قال مجاهد: نزلت هذه الآية في الأوس والخزرج حيث تقاتل حيّان من الأنصار بالعصي والنعال.

(٢) قال القرطبي: بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما وقضاء رسول الله ﷺ كذلك كما قال معاذ: أحكم بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ.

بصعب مع وجود قلوب مؤمنة وهداية ربانية وقوله ﴿فإن بغت احداهما﴾ أي اعتدت إحدى الطائفتين بعدالصلح ﴿على الأخرى﴾ بأن رفضت حكم الله الذي قامت المصالحة بموجبه ﴿فقاتلوا﴾[1] مجتمعين ﴿التي تبغي﴾ أي تعتدي ﴿حتى تفيء إلى أمر الله﴾ أي إلى الحق ﴿فإن فاءت﴾ أي أذعنت للحق ورضيت به ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ في حكمكم دائما وأبدا ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.[2] وقوله تعالى في الآية (١٠) ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم[3] واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ يقرر تعالى الأخوة الإسلامية ويقصر المؤمنين عليها قصرا فليس المؤمنون إلا إخوة لبعضهم بعضا ولذا وجب رَأبُ كلّ صدع وإصلاح كل فساد يظهر بين أفرادهم وعدم التساهل في ذلك ﴿واتقوا الله﴾ في ذلك فلا تتوانوا أو تتساهلوا حتى تسفك الدماء المؤمنة ويتصدع بنيان الإيمان والإسلام في دياره وقوله ﴿لعلكم ترحمون﴾ فلا يتصدع بنيانكم ولا تتشتت أمتكم وتصبح جماعات وطوائف متعادية يقتل بعضها بعضا. ولما لم يتق المؤمنون الله في الإصلاح الفوري بين الطوائف الإسلامية المتنازعة حصل من الفساد والشر ما الله به عليم في الغرب الإسلامي والشرق. وقوله في الآية (١١) يا أيهاالذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن﴾ إذ من عوامل النزاع والتقاتل وأسبابهما سخرية المؤمن بأخيه واحتقاره لضعف حاله ورثاثة ثيابه وقلة ذات يده فحرم تعالى بهذه الآية على المسلم أن يحتقر أخاه المسلم ويزدريه منبهاً إلى أن من احتقر وازدرى به وسخر منه قد يكون غالبا خيرا عند الله من المحتقر له والعبرة بما عند الله لا بما عند الناس والرجال في هذا والنساء سواء فلا يحل لمؤمنة أن تزدري وتحتقر أختها المؤمنة عسى أن تكون عند الله خيرا منها منزلة والعبرة بالمنزلة عند الله لا عند الناس وكما حرم السخرية بالمؤمنين والمؤمنات لإفضائها إلى العداوة والشحناء ثم التقاتل حرم كذلك اللمز والتنابز بالألقاب فقال تعالى ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ ومعنى لا تلمزوا أنفسكم أي لا يعب[4] بعضكم بعضا بأي عيب من العيوب فإنكم كشخص واحد فمن عاب

---

(١) هذه الآية نص صريح في وجوب قتال أهل البغي، وهم الذين يخرجون عن إمام المسلمين ظلماً وعدواناً بعد دعوتهم إلى الطاعة لله ورسوله وإمام المسلمين، ولا التفات إلى مَن يرى غير هذا، ومن أحكام قتال أهل البغي أنه لا يقتل أسيرهم ولا يذفف على جريحهم أي لا يجهز عليه قتلا ولا تسبى ذراريهم ولا نساؤهم ولا أموالهم.

(٢) روى مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال (المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا).

(٣) الآية دليل على أن اسم الإيمان لا يزول بالبغي فإن الله تعالى قال (بين أخويكم) فأثبت أخوة الإيمان ولم يسقطها بالبغي. روى أن علياً سئل عن قتال أهل البغي من أهل الجمل، وصفين، أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فرّوا فقيل: أمنافقون؟ قال لا لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، فقيل له فما شأنهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

(٤) قال عبدالله بن مسعود: البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلباً.

أخاه المسلم كأنما عاب نفسه كما أن المعاب قد يرد العيب بعيب من عابه وهذا معنى ولا تلمزوا أنفسكم وقوله ولا تنابزوا بالألقاب أي لا يلقب المسلم أخاه بلقب يكرهه فإن ذلك يفضي إلى العداوة والمقاتلة وقوله ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ أي قبح أشدَّ القبح أن يلقب المسلم بلقب الفسق بعد أن اصبح مؤمنا عدلا كاملا في أخلاقه وآدابه فلا يحل لمؤمن أن يقول لأخيه يا فاسق أو ياكافر أو يا عاهر أو يا فاسد، إذ بئس الاسم اسم الفسوق كما أن الملقب للمسلم بألقاب السوء يعد فاسقا وبئس الاسم له أن يكون فاسقا بعد إيمانه بالله ولقائه والرسول وما جاء به، وقوله تعالى ﴿ومن لم يتب﴾ أي من احتقار المسلمين وازدرائهم وتلقيبهم بألقاب يكرهونها ﴿فاولئك هم الظالمون﴾ المتعرضون لغضب الله وعقابه. وقوله في الآية (١٢) ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ ينادي الله تعالى المسلمين بعنوان الإيمان إذ به أصبحوا أحياء يسمعون ويبصرون ويقدرون على الفعل والترك إذ الإيمان بمثابة الروح إذا احلت الجسم تحرك فأبصرت العين وسمعت الأذن ونطق اللسان وفهم القلب.

فيقول ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن﴾[١] وهو كل ظن ليس له ما يوجبه من القرائن والأحوال والملابسات المقتضية له، ويعلل هذاالنهي المقتضى للتحريم فيقول ﴿إن بعض الظن إثم﴾ وذلك كظن السوء بأهل الخير والصلاح في الأمة فإن ظن السوء فيهم قد يترتب عليه قول باطل أو فعل سوء أو تعطيل معروف، فيكون إثما كبيرا، وقوله ﴿ولا تجسسوا﴾ أي لاتتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم بالبحث عنها والاطلاع عليها لما في ذلك من الضرر الكبير، وقوله ﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾[٢] أي لا يذكر أحدكم أخاه في غيبته بما يكره وهنا يروى في الصحيح من الأحاديث ما معناه أن رجلا سأل الرسول ﷺ عن الغيبة فقال له ذكرك أخاك بما يكره فقال الرجل فإن كان فيه ما يكره قال فإن كان فيه ما يكره فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما يكره فقد بهته والبهتان أسوأ الغيبة. وقوله أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ والجواب لا قطعاً إذاً فكما عرض عليكم لَحْمُ أخيكم ميتا فكرهتموه فاكرهوا إذاً أكل لحمه حيّاً وهو[٣] عرضه والعرض أعز

---

(١) قالت العلماء: الظن هنا هو التهمة بدون قرينة حال تدل عليها أو تدعو إليها وقد صح الحديث بتحريم الظن السيء بقوله ﷺ في رواية الصحيح (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا).

(٢) الغيبة عامة في الدين والخلق والحسب والنسب ولا وجه لتخصيصها بواحد مما ذكر، وكيف وقد فسرها النبي ﷺ بقوله (ذكرك أخاك بما يكره).

(٣) قال قتادة كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً، واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب جارية بذلك قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم   وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وأغلى من الجسم وقوله ﴿واتقوا الله﴾ في غيبة بعضكم بعضا فإن الغيبة من عوامل الدمار والفساد بين المسلمين، وقوله ﴿إن الله تواب رحيم﴾ جملة تعليلية للأمر بالتوبة فأخبر تعالى انه يقبل توبة التائبين وأنه رحيم بالمؤمنين ومن مظاهر ذلك انه حرم الغيبة للمؤمن لما يحصل له بها من ضرر وأذى. وقوله تعالى في الآية (١٣) ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ هذا نداء هو آخر نداءات الله تعالى عباده في هذه السورة وهو أعم من النداء بعنوان الإيمان فقال ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ من آدم وحواء باعتبار الأصل كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾ وبطوناً وأفخاذاً وفصائل كل هذا لحكمة التعارف فلم يجعلكم كجنس الحيوان لا يعرف الحيوان الآخر ولكن جعلكم شعوباً وقبائل وعائلات وأسر لحكمة التعارف المقتضي للتعاون إذ التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفرقوا لأجل التفاخر بالأنساب فإنه لا قيمة للحسب ولا للنسب إذا كان المرء هابطا في نفسه وخلقه وفاسدا في سلوكه إن أكرمكم عند الله أتقاكم.[1] إن الشرف والكمال فيما عليه الإنسان من زكاة روحه وسلامة خلقه وإصابة رأيه وكثرة معارفه وقوله تعالى ﴿إن الله عليم خبير﴾ جملة تعليلية يبين فيها تعالى أنه عليم بالناس عليم بظواهرهم وبواطنهم وبما يكملهم ويسعدهم خبير بكل شيء في حياتهم فليسلم له التشريع بالتحليل والتحريم والأمر والنهي فإنه على علم بالحال والمآل وبما يسعد الإنسان وبما يشقيه فآمنوا به وأطيعوه تكملوا وتسعدوا.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ وجوب مبادرة المسلمين إلى إصلاح ذات البين بينهم كلما حصل فساد أو خلل فيها.

٢ـ وجوب تعاون المسلمين على تأديب أية جماعة تبغي وتعتدي حتى تفيء إلى الحق.

٣ـ وجوب الحكم بالعدل في أية قضية من قضايا المسلمين وغيرهم.

٤ـ تقرير الأخوة الإسلامية ووجوب تحقيقها بالقول والعمل.

٥ـ حرمة السخرية واللمز والتنابز بين المسلمين.

٦ـ وجوب اجتناب كل ظن لا قرينة ولا حال قوية تدعو إلى ذلك.

٧ـ حرمة التجسس أي تتبع عورات المسلمين وكشفها وإطلاع الناس عليها.

---

(١) روى الترمذي أن النبي ﷺ (خطب بمكة فقال: يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَبِّيَةَ الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله).

٨ـ حرمة الغيبة والنميمة . والنميمة هي نقل الحديث على وجه الإفساد ولذا يجوز ذكر الشخص وهو غائب في مواطن هي التظلم بأن يذكر المسلم من ظلمه لازالة ظلمه، الاستعانة على تغيير المنكر بذكر صاحب المنكر. الاستفتاء نحو قول المستفتي ظلمني فلان بكذا فهل يجوز له ذلك، تحذير المسلمين من الشر بذكر فاعله قصد أن يحذروه، المجاهر بالفسق لا غيبة له، التعريف بلقب لا يعرف الرجل إلا به.

٩ـ حرمة التفاخر بالأنساب ووجوب التعارف للتعاون.

١٠ـ لا شرف ولا كرم إلا بشرف التقوى وكرامتها ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وفي الحديث [لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى] رواه الطبراني.

۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات :

قالت الأعراب آمنا : هم نفر من بني أسد قدموا على الرسول وقالوا له آمنا وهم غير مؤمنين.

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا : أي قل لهم إنكم ما آمنتم بعد ولكن قولوا أسلمنا أي استسلمنا وانقدنا.

ولما يدخل الإيمان في قلوبكم : أي ولما يدخل الإيمان بعد في قلوبكم ولكنه يتوقع له الدخول.

وإن تطيعوا الله ورسوله : أي في الإيمان والقيام بالفرائض واجتناب المحارم.

لا يلتكم من أعمالكم شيئا : أي لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئا.

إن الله غفور رحيم : أي غفور للمؤمنين رحيم بهم إن هم صدقوا في إيمانهم.

إنما المؤمنون : أي حقا وصدقا لا ادعاء ونطقا هم.

الذين آمنوا بالله ورسوله : أي بالله ربا وإلها وبالرسول محمد نبياورسولا .

ثم لم يرتابوا : أي لم يشكوا فيما آمنوا به .

وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله : أي جاهدوا مع رسول الله أعداء الله وهم الكافرون بأموالهم وأنفسهم.

أولئك هم الصادقون : أي في إيمانهم لا الذين قالوا آمنا بألسنتهم واستسلموا ظاهراً ولم يسلموا باطناً.

قل أتعلمون الله بدينكم : أي قل لهم يا رسولنا أي لهؤلاء الأعراب أتشعرون الله بدينكم.

يمنون عليك أن أسلموا : أي كونهم أسلموا بدون قتال وغيرهم أسلم بعدَ قتالٍ.

قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم : أي لا حق لكم في ذلك بل الحق لله الذي هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم مؤمنون.

إن الله يعلم غيب السموات والأرض : أي ان الله يعلم ما غاب في السموات وما غاب في الأرض فلا يخفى عليه أَمرُ مَن صدقَ في إيمانه وأمرُ مَن كذب، ومن أسلم رغبة ومن أسلم رهبة.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا﴾[1] هؤلاء جماعة من أعراب بني أسد وفدوا على رسول الله ﷺ

(١) هذه الآية نزلت في أعراب بني أسد، وليست عامة في كل الأعراب لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كبعض أعراب أسلم وغفار وجهينة ومزينة.

بالمدينة بأولادهم ونسائهم في سنة مجدبة فأظهروا له الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في نفوسهم، فكانوا يغدون على الرسول ﷺ ويروحون ويقولون: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، ونحن قد جئناك بالأطفال والعيال والذراري ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون على رسول الله وهم يريدون الصدقة ويقولون أعطنا فأنزل الله تعالى هذه الآية تربية لهم وتعليما إتماما لما اشتملت عليه سورة الحجرات من أنواع الهداية والتربية الإسلامية فقال تعالى ﴿قالت الأعراب﴾ أعراب بني أسد آمنا أي صدَّقنا بتوحيد الله وبنبوتك. قل لهم ردا عليهم لم تؤمنوا بعد، ولكن الصواب أن تقولوا أسلمنا أي أذعنا للإسلام وانقدنا لقبوله وهو الإسلام الظاهري، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم بعد وسيدخل إن شاء الله. وإن تطيعوا الله ورسوله أيها الأعراب في الإيمان الحق وفي غيره من سائر التكاليف لا يلتكم[1] أي لا ينقصكم الله تعالى من أجور أعمالكم الصالحة التي تعملونها طاعة لله ورسوله شيئا وإن قل. وقوله إن الله غفور رحيم في هذه الجملة ترغيب لهم في الإيمان الصادق والإسلام الصحيح فأعلمهم أن الله تعالى غفور للتائبين رحيم بهم وبالمؤمنين فتوبوا إليه واصدقوه يغفر لكم ويرحمكم وقوله تعالى في الآية (١٥) إنما المؤمنون الآية يعرفهم تعالى بالإيمان الصحيح دعوة منه لهم لعلهم يؤمنون فقال ﴿إنما المؤمنون[2]﴾ أي حقا وصدقا الذين آمنوا بالله ربًا وإلها ورسوله نبيا مطاعا، ثم لم يرتابوا، أي لم يشكوا ابدا في صحة ما آمنوا به، وجاهدوا أي أنفسهم فألزموها الاستعداد للنهوض بالتكاليف الشرعية في المنشط والمكره، كما جاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعداء الإسلام من المشركين والكافرين وذلك الجهاد بالنفس والمال لا هدف له إلا طلب رضا الله سبحانه وتعالى أي لم يكن لأي غرض مادي دنيوي وإنما لرضا الله ولإعلاء كلمة الله هؤلاء هم الصادقون في دعوى الإيمان وقوله تعالى في الآية (١٦) ﴿قل أتعلمون الله بدينكم﴾ أي قل يارسولنا لأولئك الأعراب الذين قالوا آمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم أتعلّمون الله بدينكم أي بإيمانكم وطاعتكم وتشعرونه بهما والحال أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، والله بكل شيء عليم إنه لا معنى لتعليمكم الله بدينكم وهو يعلم ما في السموات وما في الأرض وهو بكل شيء عليم إنه مظهر من مظاهر جهلكم بالله تعالى، إذ لو علمتم انه يعلم ما في السموات وما في الأرض من دقيق

---

(١) (لايلتكم) أي لا ينقصكم يقال: لاته يليته، ويلوته إذا نقصه وقرأ أبو عمرو (لا يألتكم) مهموزا من ألت يألت ألتاً نحو قوله تعالى: (وما ألتناهم من عملهم من شيء) وشاهد الأول:

وليلة ذات ندى سريتُ   ولم يلتني عن سراها ليتُ

(٢) لما نزلت هذه الآية: (إنما المؤمنون) حلف الأعراب انهم مؤمنون في السر والعلانية فأكذبهم الله تعالى في دعواهم الكاذبة فأنزل عز وجل (قل أتعلمون الله بدينكم) أي: الذي أنتم عليه؟

وجليل لما فهتم بما فهتم به من إشعاركم الله بإيمانكم وطاعتكم له. وقوله تعالى في الآية (١٧) ﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾[1][2] أي يمّن أولئك الأعراب عليك يا رسولنا إيمانهم إذ قالوا آمنا بك ولم نقاتلك كما فعل غيرنا قل لهم لا تمنوا عليَّ إسلامكم واضرب عن هذا وقل لهم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان، فالمنة لله عليكم لا أن تمنوا أنتم على رسوله. وقوله تعالى ﴿إن الله يعلم غيب[3] السموات والأرض﴾ أي كل ما غاب في السموات وما غاب في الأرض من سانح في السماء وسابح في الماء وسارح في الغبراء فليس في حاجة أن تعلموه بدينكم وتمنونه على رسوله ﷺ والله بصير بما تعملون من عمل قلَّ أو كثر خفيَّ أو ظهر فاعلموا هذا وتأدبوا مع الله وأحسنوا الظن فيه تنجو من هلاك لازم لمن أساء الظن بالله وأساء الأدب مع رسول الله.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ بيان طبيعة أهل البادية وهي الغلظة والجفاء والبعد عن الكياسة والأدب.

٢ـ بيان الفرق بين الإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان من أعمال القلوب والإسلام من أعمال الجوارح. وإذا افترقا فالإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان والحقيقة هي أنه لايوجد إيمان صحيح بدون إسلام صحيح، ولا إسلام صحيح بدون إيمان صحيح، ولكن يوجد اسلام صوري بدون إيمان، وتوجد دعوى إيمان كاذبة غير صادقة.

٣ـ بيان المؤمنين حقا وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

٤ـ بيان حكم المنّ وأنه مذموم من الإنسان ومحمود من الرحمن عز وجل وحقيقة المن هي عد النعمة وذكرها للمنعم عليه وتعدادها المرة بعد المرة.

٥ـ بيان إحاطة علم الله بسائر المخلوقات، وأنه لا يخفى عليه من أعمال العباد شيء.

---

(١) (يمنون) إشارة إلى قولهم جئناك بالأثقال والعيال كما تقدم في التفسير.

(٢) (أن أسلموا) حرف الجر محذوف الأصل، بأن أسلموا أي: إسلامهم.

(٣) ذيل الكلام بهذه الجملة (إن الله يعلم) الخ ليعلموا أن الله لا يكتم وأنه لا يكذب عليه لعلمه بالغيوب كلها، وفي هذا تقويم لأخلاقهم وتربية وتأديب لهم.

سُورَةُ قٓ [1]

مكية

وآياتها خمس وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

شرح الكلمات :

قٓ : هذا أحد الحروف المقطعة التي تكتب هكذا قٓ وتقرأ هكذا قاف.

والقرآن المجيد : أي والقرآن المجيد أي الكريم قَسَمِي لقد أرسلنا محمدا مبلغا عنا.

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم : أي بل عجب أهل مكة من مجيء منذر أي رسول منهم ينذرهم عذاب الله يوم القيامة.

فقال الكافرون هذا شيء عجيب : أي فقال المكذبون بالبعث هذا أي البعث بعد الموت والبلى شيء عجيب.

أئذا متنا وكنا ترابا : أئذا متنا وصرنا ترابا أي رفاة وعظاما نخرة نرجع أحياء.

ذلك رجع بعيد : أي بعيد الإمكان في غاية البعد.

قد علمنا ما تنقص الأرض منهم : أي قد أحاط علمنا بكل شيء فعلمنا ما تنقص الأرض من

---

(١) صح في الموطأ وفي مسلم أن النبي ﷺ قرأ بهذه السورة في صلاة الصبح وفي عيدي الأضحى والفطر أيضاً مع سورة القمر

أجساد الموتى وما تأكل من لحومهم وعظامهم فكيف يستبعد منا إحياؤهم بعد موتهم.

وعندنا كتاب حفيظ : أي كتاب المقادير الذي قد كتب فيه كل شيء ومن بين ذلك أعداد الموتى وأسماؤهم وصورهم وأجسامهم ويوم إعادتهم.

بل كذبوا بالحق لما جاءهم : بل كذب المشركون بما هو أقبح من تكذيبهم بالبعث وهو تكذيبهم بالنبوة المحمدية وبالقرآن ومن نزل عليه.

فهم في أمر مريج : أي مختلط عليهم فهم فيه مضطربون لا يثبتون على شيء إذ قالوا مرة سحر ومرة قالوا شعر ومرة كهانة وأخرى أساطير.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿قٓ﴾ الله أعلم بمراده به إذ هو من الحروف المقطعة الآحادية نحو صٓ. ونٓ وقوله تعالى ﴿والقرآنِ المجيد﴾[1] أي الكريم فالقرآن مجيد كريم لما فيه من الخير والبركة إذ قراءة الحرف الواحد منه بعشر حسنات. وقوله والقرآن المجيد قسم والجواب محذوف تقديره إن محمداً لرسول أمين. وقوله تعالى ﴿بل عَجبوا[2] أن جاءهم منذر منهم﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم وإنما أنكروا كون المرسل بشراً مثلهم ينذرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله ﴿فقال الكافرون﴾ أي بالبعث ﴿هذا شيء عجيب﴾

أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار ترابا لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيُسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم ﴿أئذا[3] متنا وكنا تراباً﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق. قال تعالى ﴿قد علمنا ما تنقص[4] الأرض منهم وعندنا كتاب[5] حفيظ﴾ هذه برهنة واضحة على إبطال دعواهم وتحقيق عقيدة البعث أي قد علمنا ما تنقص الأرض منهم بعد الموت من لحم وعظم، وعندنا كتاب حفيظ قد حوى كل شيء وحفظه مادة وكميّة وكيفية بمقتضاه يعود

---

(١) المجيد: المتصف بقوة المجد، والمجد والمجادة: الشرف الكامل، وكرم النوع ولذا فالقرآن يفوق في مجده كُلَّ كلام على الاطلاق حتى الكلام الموحى به إلى رسل الله عليهم السلام.

(٢) (بل) للاضراب الانتقالي، وهو انتقال من تقرير النبوة المحمدية التي أثبتها بالقسم إلى تقرير عقيدة البعث والجزاء إذ أورد قول الكافرين المنكرين لها ثم أثبتها بالأدلة القاطعة من عدة آيات كأنما قال: دع ذا واسمع ما أقول. و(أن جاءهم) مجرور بمن محذوفة أي من أن جاء ويعد السبك من مجيئهم.

(٣) الاستفهام للإبطال والتعجيب والمتعجب منه محذوف تقديره أنرجع إلى الحياة بعد انعدامنا بالموت وصيرورتنا ترابا؟

(٤) قوله (ما تنقص الأرض) إشارة إلى أن هناك أجساداً لا تبيد كلها بل يبقى أبعاضها، وإلى أن عجب الذنب لا يفنى ولا يبيد بل يبقى كما هو ليعاد الخلق به يوم القيامة.

(٥) التنكير في (كتاب) للتعظيم ويدل عليه قوله (حفيظ).

الخلق كما بدأ لا ينقص منه شيء وقوله، ﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ أي إن هناك ما هو أشنع من إنكارهم وأقبح عقلا وهو تكذيبهم بالقرآن ومن أنزل عليه وهو الحق من الله فلذا هم فيه في أمر مريج أي مختلط فمرة قالوا في الرسول إنه ساحر وقالوا شاعر وقالوا مفتر كذاب وقالوا في القرآن أساطير الأولين فهم حقا في أمر مريج مختلط عليهم لا يدرون ما يقولون ويثبتون عليه.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- بيان شرف القرآن ومجده وكرمه.

٢- تقرير البعث والوحي الإلهي.

٣- البرهنة الصحيحة الواضحة على صحة البعث والجزاء وإمكانهما.

٤- تقرير عقيدة القضاء والقدر بتقرير كتاب المقادير.

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم : أي أعموا فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى السماء كائنة فوقهم فيعلموا أن استبعادهم للبعث غير صحيح.

كيف بنيناها وزيناها : أي كيف بنيناها بلا عمد. وزيناها بالكواكب.

وما لها من فروج : أي وليس لها من شقوق تعيبها.

والأرض مددناها [1] : أي بسطناها

---

(١) (الأرض) منصوب على الاشتغال أي: مددنا الأرض مددناها.

وألقينا فيها رواسي : أي جبالا رواسي ثوابت لا تسير ولا تتحرك مثبتة للأرض كي لا تميد بأهلها.

وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج[1] : أي وأنبتنا في الأرض من كل صنف من أنواع النباتات حسن.

تبصرة وذكرى لكل عبد منيب : أي جعلنا ذلك تبصرة وذكرى منا لكل عبد منيب إلى طاعتنا رجاع إلينا.

ونزلنا من السماء ماء مباركا : أي ماء المطر كثير البركة.

فأنبتنا به جنات وحب الحصيد : أي أنبتنا بماء السماء بساتين وحب الحصيد أي المحصود من البر والشعير.

والنخل باسقات[2] : أي وأنبتنا بالماء النخيل الطوال العاليات.

لها طلع نضيد : أي لها طلع منضد متراكب بعضه فوق بعض.

رزقا للعباد : أي أنبتنا ما أنبتنا من الجنات والحب الحصيد والنخل الباسقات قوتا للعباد ورزقا لهم مؤمنهم وكافرهم.

وأحيينا به بلدة ميتا : وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة ميتا لا نبات فيها من الجدب الذي أصابها والقحط.

كذلك الخروج : أي كما أخرجنا النبات من الأرض الميتة بالماء نخرجكم أحياء من قبوركم يوم القيامة بماء ننزله من السماء على الأرض فتنبتون كما ينبت البقل.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث وهي العقيدة التي بُنِيَ عليها كل إصلاح يراد للإنسان بعد عقيدة الإيمان بالله تعالى ربًا وإلهاً قال تعالى ﴿أفلم ينظروا[3] إلى السماء فوقهم كيف[4] بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ أي أعمي أولئك المنكرون للبعث المكذبون بلقاء ربهم يوم القيامة فلم ينظروا بعيونهم معتبرين بعقولهم إلى حجم السماء الواسع العالي الرفيع الكائن فوقهم وقد رفع بلا عمد ولا سند. وقد زيّنه خالقه بكواكب نيّرة وأقمار منيرة وشموس مضيئة ولم يُر في السماء

(١) (من) ليست للتبعيض بل هي للتأكيد إلا أن زيادتها مع الإثبات نادرة كما هي هنا.

(٢) لا يقال للطويل: باسق إلا إذا كان طوله في علو وارتفاع إما ما يكون طوله في امتداد وانبساط فلا يقال له باسق.

(٣) الاستفهام للإنكار عليهم عدم النظر لتقرر به عقيدة البعث والجزاء، والفاء تفريعية على إنكارهم السابق للبعث الآخر.

(٤) (فوقهم) ظرف في محلّ الحال، وأطلق البناء على خلق العلويات بجامع الارتفاع والاستمساك وعدم السقوط والانهيار.

من تصدع ولا شقوق[1] ولا تفطر الحياة كلها أليس القادر على خلق السماء قادر على إحياء موتى خلقهم وأماتهم بقدرته أليس القادر على الخلق ابتداء وعلى الإماتة ثانية بقادر على إحياء من خلق وأمات؟[2] وقوله ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ أي مالهم لا ينظرون إلى الأرض أي بسطها وألقى فيها الجبال لتثبيتها حتى لا تميد بهم، وقوله ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج﴾ أي صنف من النباتات والزروع بهيج المنظر حسنه، وقوله ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ وقوله ﴿وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا فيه جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقاً للعباد﴾[3] أي أليس الذي أنزل من السماء ماء مباركا لما يكثر به من الخيرات والبركات من النبات والحيوان فأنبت به جنّات أي بساتين من أشجار ونخيل وأعناب، وأنبت به حب الحصيد وهو كل حب يحصد عند طيبه من قمح وشعير وذرة وغيرها وأنبت به النخل الباسقات العاليات المرتفعات في السماء لها طلعها النضيد المتراكب بعضه فوق بعض ليتحول إلى رطبٍ شهيٍ يأكله الإنسان وقوله رزقا للعباد أي قوتا لهم يقتاتون به مؤمنين وكافرين إلاّ أن المؤمن إذا أكل شكر والكافر إذا أكل كفر، وقوله ﴿وأحيينا به﴾ أي بالماء الذي أنزلناه من السماء مباركاً بلدة ميتا لا نبات بها ولا عشب ولا كلأ فأصبحت تهتز رابية كذلك الخروج أي هكذا يكون خروجكم من قبوركم أيها المنكرون للبعث ينزل الله من السماء ماء فتنبتون وتخرجون من قبوركم كما يخرج الشجر والزرع من الأرض بواسطة الماء المبارك فبأي عقل تنكرون البعث أيها المنكرون. إنها كما قال تعالى ﴿لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ تقرير عقيدة البعث بمظاهر القدرة الإلهية في الكون.

٢ـ مشروعية النظر والاعتبار فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون والحياة للعبرة طلبا لزيادة الإيمان والوصول به إلى مستوى اليقين.

٣ـ فضل العبد المنيب وفضيلة الإنابة إلى الله تعالى والمنيب هو الذي يرجع إلى ربه في كل ما يهمه والإنابة التوبة إلى الله والرجوع إلى طاعته بعد معصيته.

كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ

---

(١) من آيات القدرة والعلم الإلهيين: كون السماء على شكل قبة مرفوعة في قالب لا تشقق فيها ولا تصدع مزينة بأنواع النجوم والكواكب.

(٢) بلى إنه لقادر بلا مرية ولا شك.

(٣) (رزقاً) منصوب على انه مفعول لأجله.

لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

كذبت قبلهم قوم نوح : أي قبل قومك يا رسولنا بالبعث والتوحيد والنبوة قوم نوح.

وأصحاب الرس وثمود : أي وكذب أصحاب الرس وهي بئر كانوا مقيمين حولها يعبدون الأصنام وثمود وهم أصحاب الحجر قوم صالح.

وعاد وفرعون : وكذبت عاد قوم هود، وكذب فرعون موسى عليه السلام.

وإخوان لوط وأصحاب الأيكة : أي وكذب قوم لوط أخاهم لوطا، وكذب أصحاب الأيكة شعيبا.

وقوم تبع : أي وكذب قوم تبع الحميري اليمني.

كل قد كذب الرسل : أي كل من ذكر قد كذب الرسل فلست وحدك المكذَّب يا محمد ﷺ.

فحق وعيد : أي فوجب وعيدي لهم بنزول العذاب عليهم فنزل فهلكوا.

أفعيينا بالخلق الأول[1] : أي أفعيينا بخلق الناس أولا والجواب لا إذاً فكيف نعيى بخلقهم ثانية وإعادتهم كما كانوا؟.

بل هم في لبس من خلق جديد : أي هم غير منكرين لقدرة الله عن الخلق الأول بل هم في خلط وشك من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة وهي أن كل من مات منهم يرونه يفنى ولا يعود حيّاً.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء وإثبات النبوة للرسول ﷺ فقال تعالى ﴿كذبت[2] قبلهم﴾ أي قبل قريش المكذبين بالبعث والجزاء وبالنبوة المحمدية كذبت قبلهم قوم نوح وهي أول أمة كذبت وعاش نوح نبيها ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوها إلى الله فلم يؤمن منهم أكثر من نيف وثمانين نسمة، وأصحاب الرس أيضا قد أخذوا نبيهم ورسوه في بئر فقتلوه فأهلكهم الله

---

(١) أي: (أفعيينا) به فنعيي بالبعث وهو توبيخ لمنكري البعث وجواب على قولهم ذلك رجع بعيد يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه هذا في المعاني أما في الذوات فعيي بمعنى عجز ولم يقدر عليه.

(٢) هذا استئناف ابتدائي الغرض منه تسلية الرسول ﷺ بإعلامه أن أمما كثيرة قد كذبت رسلها قبل تكذيب قومه له ﷺ.

تعـالى في بئـر كانـوا يقيمـون على أصنـام حولهـا يعبـدونهـا فأهلكهم في تلك البئر وأهلك ثمـوداً وهم قوم صالح ،وعاداً وهم قود هود وفرعون موسى وقوم لوط،[1] وأصحاب الأيكة أي الشجر الملتف إذ كانوا يعبُدون أشجـار تلك الأيكـة، وقوم تبع وهو تبع الحميري اليمني. وقوله تعالى ﴿كل كذب الرسل﴾ أي كل تلك الأمم التي ذكرنا كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم ولا بما جاءوهم به من التوحيد والشرع ﴿فحق وعيد﴾[2] أي فوجب لذلك عذابهم الذي واعدتهم به على ألسنة رسلي إن لم يؤمنوا فأهلكناهم أجمعين وقومك يا محمد هم موعودون أيضاً بالعذاب إن لم يبادروا بالإيمان والطاعة. وقوله تعالى ﴿أفعيينا بالخلقْ الأول﴾[3] والجواب لا إذ الاستفهام للنفي أي لم يَعْـيَ الله تعالى بخلق كل ما خلق من المـلائكة والإنس والجن فكيف إذاً يعيى بالإعادة وهي أهون من البدء والبداية ، وقوله تعالى ﴿بل هم[4] في لبس من خلق جديد﴾ أي انهم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول بل هم في لبس أي خلط وشك من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة حيث هم يرون الناس يموتون ولا يحيون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ تعزية الرسول ﷺ وتسليته بإعلامه بأن قومه ليسوا أول من كذب الرسل.

٢ـ تهـديد المصرين على التكذيب من كفار قريش بالعذاب إذ ليسوا بأفضل من غيرهم وقد أهلكوا لما كذبوا.

٣ـ تقرير البعث والجزاء وإثبات عقيدتهما بالأدلة العقلية كبدء الخلق.

٤ـ ضعف إدراك المنكرين للبعث لظلمة نفوسهم بالشرك والمعاصي.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ

(١) قوله تعالى : (وإخوان لوط) عبر بالإخوان دون القوم تنويع للأسلوب والمراد بهم قوم لوط ، والأخوة هنا أخوة تلازم ومواطنة وما هي بأخوة دين ولا نسب وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب عليه السلام.

(٢) أي : صدق وعده فيهم ووجب وقوعه عليهم.

(٣) الاستفهام للإنكار والتغليظ إذ لا يسعهم إلا الاعتراف بأن الله تعالى الذي خلق كل شيء في الأرض والسماء ومن جملة ذلك خلقهم هم المنكرون للبعث فكيف يعجز عن إعادة خلقهم مرة أخرى للجزاء والحساب.

(٤) (بل) للإضراب الإبطالي أي : ما عيينا بالخلق الأول.

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات :

ولقد خلقنا الإنسان : أي خلقناه بقدرتنا وعلمنا لحكمة[1] اقتضت خلقه فلم نخلقه عبثا.

ونعلم ما توسوس به نفسه : أي ونعلم ما تحدث به نفسه أي نعلم ما في نفسه من خواطر وإرادات.

ونحن أقرب إليه من حبل الوريد : أي نحن بقدرتنا على الأخذ منه والعطاء والعلم بما يُسر ويُظهر أقرب إليه من حبل الوريد الذي هو في حلقه.

إذ يتلقى المتلقيان : أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عمله فيكتبانه.

عن اليمين وعن الشمال قعيد[2] : أي أحدهما عن يمينه قعيد والثاني عن شماله قعيد أيضا.

ما يلفظ من قول : أي ما يقول من قول.

إلا لديه رقيب عتيد : أي إلا عنده ملك رقيب حافظ عتيد حاضر معد للكتابة.

وجاءت سكرة الموت بالحق : أي غمرة الموت وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر لها عيانا.

ذلك ما كنت منه تحيد : أي ذلك الموت الذي كنت تهرب منه وتفزع.

ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد : أي ونفخ إسرافيل في الصور الذي هو القرن ذلك يوم الوعيد للكفار بالعذاب.

معها سائق وشهيد : أي معها سائق يسوقها إلى المحشر وشهيد يشهد عليها.

---

(١) هذه الحكمة هي ذكره تعالى وشكره بأنواع العبادات لقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وسائر المخلوقات هي لأجل الناس فعاد الأمر إلى أن المخلوقات كلها مخلوقة لعلة العبادة.

(٢) القعيد بمعنى المقاعد كالجليس بمعنى المجالس.

لقد كنت في غفلة من هذا : أي من هذا العذاب النازل بك الآن.
فكشفنا عنك غطاءك : أي أزلنا عنك غفلتك بما تشاهده اليوم.
فبصرك اليوم حديد : أي حاد تدرك به ما كنت تنكره في الدنيا من البعث والجزاء.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء فقال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ حسب سنتنا في الخلق خلقناه بقدرتنا وعلمنا لحكمة[1] اقتضت خلقه منا ولم نخلقه عبثا ونحن نعلم ما توسوس به نفسه أي ما تتحدث به نفسه من إرادات أو خواطر، ونحن أي ربّ العزة والجلال أقرب إليه من حبل الوريد[2] فلو أردنا أن نأخذ منه أو نعطيه أو نسمع منه أو نعلم به لكنا على ذلك قادرين وقربنا في ذلك منه أقرب من حبل عنقه إلى نفسه وذلك في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان المتلقيان سائر أقواله وأعماله يثبتانها ويحفظانها وقوله عن اليمين وعن الشمال قعيد أي أحد الملكين وهما المتلقيان عن يمينه قاعد والثاني عن شماله قاعد هذا يكتب الحسنات وذاك يكتب السيئات.

ولفظ قعيد معناه قاعد كجليس بمعنى مجالس أو جالس، وقوله تعالى ﴿ما يلفظ من قول﴾ أي ما يقول الإنسان إلا لديه رقيب عتيد أي إلا عنده ملك رقيب حافظ، وعتيد حاضر لا يفارقانه مدى الحياة إلا أنهما يتناوبان ملكان بالنهار و ملكان بالليل ويجتمعون في صلاتي الصبح والعصر وقوله تعالى ﴿وجاءت سكرة الموت[3] بالحق﴾ أي وإن طال العمر فلابد من الموت وها هي ذي قد جاءت سكرة الموت أي غمرته وشدته بالحق من أمر الآخرة حتى يراه المنكر للبعث والدار الآخرة المكذب به يراه عياناً. ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي يقال له هذا الموت الذي كنت منه تحيد أي تهرب وتفزع. وقوله تعالى ﴿ونفخ في الصور﴾ أي نفخ اسرافيل في الصور أي القرن الذي قد التقمه وجعله في فيه من يوم بعث النبي الخاتم نبيّ آخر الزمان محمد ﷺ وهو ينتظر متى يؤمر فينفخ نفخة الفناء ذلك أي يوم ينفخ في الصور هو يوم الوعيد[4] بالعذاب للكافرين، وفعلا نفخ في الصور نفخة البعث بعد نفخة الفناء ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ أي ملك يسوقها إلى

---

(١) تقدم بيان الحكمة للخلق تحت رقم واحد من هذا السياق في شرح الكلمات.

(٢) الوريد: واحد الشرايين، وهو ثاني شريانين يخرجان من التجويف الأيسر من القلب وهما عرقان يكتنفان صفحتي العنق في مقدميهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، والحبل: العرق والجمع عروق ويختلف أسمه باختلاف موضعه من الجسم.

(٣) السكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم واختلال في المزاج يحد من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة وهو مشتق من السكر وهو الغلق لأنه يغلق العقل، ومنه جاء وصف السكران.

(٤) يوم وعيد للكافرين ويوم وعد صادق للمؤمنين، ولما كان السياق في دعوة الكافرين إلى الإيمان ذكر الوعيد دون الوعد.

المحشر وملك شاهد يشهد عليها. ويقال لذلك الذي جاء به سائق يسوقه وشاهد يشهد عليه لقد كنت في غفلة من هذا أي كنت في الدنيا في غفلة عن الآخرة وما فيها وغفلتك من شهواتك ولذاتك وغرورك بالحياة الدنيا من هذا العذاب النازل بك الآن فكشفنا عنك غطاءك أي أزلنا عنك غفلتك بما تشاهده اليوم عيانا بيانا من ألوان العذاب فبصرك اليوم حديد أي حاد تدرك به وتبصر ما كنت تكفر به في الدنيا وتُنكرهُ.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- بيان قدرة الله وعلمه وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ألا فليتق الله امرؤ.

٢- تقرير عقيدة أن لكل إنسان مكلف ملكين يكتبان حسناته وسيئاته.

٣- بيان أن للموت سكرات قطعا اللهم هون علينا سكرات الموت.

٤- ساعة الاحتضار يؤمن كل إنسان بالدار الآخرة إذ يرى ما كان ينكره يراه بعينه.

٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء بعرض بعض أحوال وأهوال الآخرة.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ[1] لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

وقال قرينه : أي الملك الموكل به.

هذا ما لديّ عتيد : أي هذا عمله حاضر لديّ.

---

(١) قرأ نافع: (يوم يقول) بالياء، وقرأ حفص (نقول) بالنون.

كل كفار عنيد	: أي كثير الكفر والجحود لتوحيد الله وللقائه ولرسوله معاند كثير العناد.
مناع للخير معتد مريب	: أي مناع للحقوق والواجبات من المال وغيره.
الذي جعل مع الله إلهاً آخر	: أي أشرك بالله فجعل معه آلهة أخرى يعبدها.
ربنا ما أطغيته	: أي يقول قرينه من الشياطين ياربنا ما أطغيته أي ما حملته على الطغيان.
ولكن كان في ضلال بعيد	: أي ولكن الرجل كان في ضلال بعيد عن كل هدى متوغلا في الشرك والشر.
وقد قدمت إليكم بالوعيد	: أي قدمت إليكم وعيدي بالعذاب في كتبي وعلى لسان رسلي.
ما يبدل القول لديّ	: أي ما يغير القول عندي وهو قوله لأملأن جهنم منكم أجمعين.
يوم نقول لجهنم هل امتلأت	: أي وما الله بظلام للعبيد يوم يقول لجهنم هل امتلأت.
وتقول هل من مزيد	: أي لم أمتليء هل من زيادة فيضع الجبار عليها قدمه فتقول قط قط.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر مشاهد القيامة وأحوال الناس فيها فقال تعالى ﴿وقال قرينه﴾[1] أي قال قرين[2] ذلك الكافر الذي جيىء به إلى ساحة فصل القضاء ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه. قال قرينه وهو الملك الموكل به هذا ما لديّ أي من أعمال هذا الرجل الذي وكلت بحفظ أعماله وكتابتها عتيد أي حاضر. وهنا يقال لمن استحق النار ﴿ألقيا في جهنم﴾ وهو خطاب لمن جاءا[3] به وهما السائق والشهيد ﴿كل كفّار عنيد مناع للخير معتد مريب﴾ فهذه خمس صفات قد اجتمعت في شخص واحد فأوبقته الأولى ﴿كفار﴾ أي كثير الكفر الذي هو الجحود لما يجب الإيمان به والتصديق من سائر أركان الإيمان الستة، والثانية عنيد والعنيد التارك لكل ما وجب عليه المعاند في الحق المعاكس في المعروف وهي شر صفة، الثالثة مناع للخير أي كثير المنع للخير مالاً كان أو غيره لا يبذل معروفاً قط، الرابعة معتدٍ أي على حدود

---

(١) الواو واو الحال، والجملة حالية، وصاحب الحال تاء الخطاب في قوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا) والقرين، بمعنى مقرون وهو مأخوذ من القرن بفتح القاف والراء وهو الحبل إذ كانوا يقرنون البعير بمثله بحبل سموه القرن.

(٢) اختلف في تحديد القرين على ثلاثة أقوال وما ذكر في التفسير هو أرجحها.

(٣) وجائز أن يكون خطاباً لواحد بصيغة التثنية على حد قول الشاعر: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.

الشرع معتد على الناس ظالم لهم بأكل حقوقهم وأذيتهم في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم الخامسة مريب أي شاك لا يعرف التصديق بشيء من أمور الدين فهو جامع لكل أنواع الكفر وقوله ﴿الذي جعل مع الله إلهاً﴾ وهذا وصف سادس وهو أسوأ تلك الصفات وهو اتخاذه إلهاً آخر يعبده دون الله تعالى وقوله تعالى ﴿فألقياه في العذاب الشديد﴾ هذا أمر آخر أكد به الأمر الأول وهو ألقيا في جهنم كل كفار عنيد. وقوله تعالى ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد﴾ قال هذا القول القرين لما قال المشرك معتذراً ربِّ إن قريني من الشياطين أطغاني فرد عليه القرين بما أخبر تعالى به عنه في قوله قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد فقال الرب تعالى ﴿لا تختصموا[1] لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد﴾ فرد الله حجة كل من الكافر والقرين من الشياطين وأعلمهما أنه قد قدم إليهما بالوعيد في كتبه وعلى ألسن رسله من كفر بالله وأشرك به وعصى رسله فإن له نار جهنم خالداً فيها أبدا. وقوله تعالى ﴿ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد﴾ أخبر[2] تعالى أن حكمه نافذ فيمن كفر به وعصى رسله إذ سبق قوله لإبليس عندما أخرج آدم من الجنة بوسواسه وهو لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين. فهذا القول الإلهي لا يبدل ولا يقدر أحد على تبديله وتغييره وقوله ﴿وما أنا بظلام للعبيد نفى تعالى الظلم عن نفسه والظلم هو أن يعذب مطيعا، أو يدخل الجنة كافراً عاصياً.

وقوله تعالى ﴿يوم نقول لجنهم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ أي اذكر يا نبينا لقومك المنهمكين في الشرك والمعاصي ما ينتظر أمثالهم من عذاب جهنم اذكر لهم يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد بعدما يدخل فيها كل كافر وكافرة من الإنس والجن وتقول طالبة الزيادة هل من مزيد؟ ولما لم يبق أحد يستحق عذاب النار يضع الجبار فيها قدمه فينزوي بعضها في بعض وتقول قط قط والحديث معناه في الصحيحين وغيرهما.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ تقرير عقيدة البعث والجزاء.

٢ـ التحذير من الصفات الست التي جاءت في الآية وهي الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء

---

(١) النهي عن المخاصمة دال على أن النفوس الكافرة ادعت أن قرناءها أطغوها، وأن القرناء تنصلوا من ذلك، وأن النفوس أعادت القول فكانت بذلك خصومة فأسكتهم الحق عز وجل بقوله: (لا تختصموا لدي).

(٢) المبالغة في وصف (ظلام) راجعة إلى تأكيد النفي المطلق إذ المراد لا أظلم شيئا من الظلم، وليس المعنى ما أنا بكثير الظلم أو شديده إذ الأمر في أمثلة المبالغة أن يقصد بها المبالغة في النفي. قال طرفة:

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

إذ لم يرد نفي كثرة حلوله التلاع وإنما أراد كثرة النفي إذ هو لم يحل في تلعة بالمرة جبناً وخوفاً.

والشك والشرك.

٣ـ بيان خصومة أهل النار من إنسان وشيطان.

٤ـ نفي الظلم عن الله تعالى وهو كذلك فلا يظلم الله أحدا من خلقه.

٥ـ إثبات[(١)] صفة القدم للربّ تعالى كما يليق هذا الوصف بذاته التي لا تشبه الذوات سبحانه وتعالى عن صفات المحدثين من خلقه.

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

وأزلفت الجنة للمتقين : أي قرّبت الجنة للمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي.

غير بعيد[(٢)] : أي مكانا غير بعيد منهم بحيث يرونها.

لكل أواب حفيظ : أي رجاع إلى طاعة الله كلما ترك طاعة عاد إليها حافظ لحدود الله.

من خشي الرحمن بالغيب : أي خاف الله تعالى فلم يعصه وإن عصاه تاب إليه وهو لم يره.

وجاء بقلب منيب : أي مقبل على طاعته تعالى.

أدخلوها بسلام : أي ويقال لهم وهم المتقون أدخلوها أي الجنة بسلام أي مع سلام وحال كونكم سالمين من كل مخوف.

ولدينا مزيد : أي مزيد من الانعام والتكريم في الجنة وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة) نزع هنا بعض أهل العلم كالقرطبي إلى تأويل القدم ففسرها بما يقدم للنار من أقوام وأولوا كذلك لفظ الرجل في حديث (حتى يضع الله عليها رجله) وقالوا الرجل بمعنى العدد الكثير من الناس كالرجل من الجراد، ولا داعي لهذا التأويل الذي لم يؤوله رسول الله ﷺ وهو يحدث به أصحابه فالأسلم للمؤمن أن يؤمن بصفات الله ويمرها كما جاءت فالقدم، والرجل كاليد والعين صفات ذات لله يؤمن العبد بها وهو يعتقد أنها لا تشبه صفات العباد وهي كذلك والحمد لله.

(٢) (غير بعيد) نعت لمحذوف تقديره مكاناً غير بعيد من المتقين والإزلاف التقريب.

معنى الآيات:

ما زال السياق في تقرير البعث والجزاء بذكر بعض مظاهره قال تعالى بعد ما ذكر ما لأهل النار من عذاب ﴿وأزلفت الجنة﴾ أي أدنيت[1] وقربت ﴿للمتقين غير بعيد﴾ وهم الذين اتقوا الله تعالى بترك الشرك والمعاصي فلا تركوا فريضة ولا غشوا كبيرة.[2] وقوله تعالى هذا ما توعدون أي يقال لهم هذا ما توعدون أي من النعيم المقيم، لكل أواب حفيظ أي رجاع إلى طاعة الله تعالى حفيظ أي حافظ لحدود الله. حفيظ أيضا لذنوبه لا ينساها كلما ذكرها استغفر الله تعالى منها. وقوله من خشي الرحمن بالغيب هذا بيان للأواب الحفيظ وهو من خاف الرحمن تعالى بالغيب أي وهو غائب عنه لا يراه ولم يعصه بترك واجب ولا بفعل حرام، وقوله وجاء بقلب منيب[3] أي إلى ربه أي مقبل على طاعته بذكر الله فلا ينساه ويطيعه فلا يعصيه، وقوله تعالى ادخلوها أي يقال لهم أي للمتقين ادخلوها أي الجنة بسلام[4] أي مسلما عليكم وسالمين من كل مخوف كالموت والمرض والألم والحزن وذلك يوم الخلود أي في الجنة وفي النار فأهل الجنة خالدون فيها وأهل النار خالدون[5] فيها وقوله لهم ما يشاءون فيها أي لأهل الجنة ما يشاءون أي ما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم وقوله ولدينا مزيد أي وعندنا لكم مزيد من النعيم وهو النظر إلى وجهه الكريم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١ـ فضل التقوى وكرامة المتقين على ربّ العالمين.

٢ـ فضل الأواب الحفيظ وهو الذي كلما ذكر ذنبه استغفر ربّه.

٣ـ بيان أكبر نعيم في الجنة وهو رضا الله والنظر إلى وجهه الكريم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ

---

(١) عطف على (يوم نقول لجهنم هل امتلات).

(٢) أو تركوا وغشوا ولكن تابوا وصحت توبتهم فقبلت منهم فهم كمن لم يترك فريضة ولم يغش كبيرة إذ التوبة تجب ما قبلها، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(٣) أي: حضر يوم القيامة مصاحباً قلبه المنيب إلى الله، وفي الحديث: (من مات على شيء بعث عليه) فهذا العبد عاش ومات على قلب منيب فبعثه به شاهد عليه بالإنابة إلى ربه.

(٤) هذا كقوله تعالى: (ادخلوها بسلام آمنين).

(٥) هذا المطلق من الأخبار مقيد قطعاً بمن مات على الشرك والكفر أما من مات على الإيمان والتوحيد فإنه لا يخلد في النار بل يخرج منها إلى الجنة ومن ينكر هذا كالخوارج فقد كذب الله ورسوله ومن كذب الله ورسوله عامداً فقد كفر.

لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

شرح الكلمات:

وكم أهلكنا قبلهم من قرن: أي كثيرا من أهل القرون قبل كفار قريش أهلكناهم.

هم أشد منهم بطشا: أي أهل القرون الذين أهلكناهم قبل كفار قريش هم أشد قوة وأعظم أخذا من كفار قريش ومع هذا أهلكناهم.

فنقبوا في البلاد هل من محيص: أي بحثوا وفتشوا في البلاد علّهم يجدون مهرباً من الهلاك فلم يجدوا.

إن في ذلك لذكرى: أي إن في المذكور من إهلاك الأمم القوية موعظة.

لمن كان له قلب أو ألقى السمع: أي الموعظة تحصل للذي له قلب حيٌ وألقى سمعه يستمع.

وهو شهيد: وهو شهيد أي حاضر أثناء استماعه حاضر القلب والحواس.

وما مسنا من لغوب: أي من نصب ولا تعب.

فاصبر على ما يقولون: أي فاصبر يارسولنا على ما يقوله اليهود وغيرهم من التشبيه لله والتكذيب بصفاته.

وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس : أي صل حامداً لربك قبل طلوع الشمس وهي صلاة الصبح .
وقبل الغروب : أي صل صلاة الظهر والعصر.
ومن الليل فسبحه : أي صل صلاتي المغرب والعشاء.
وأدبار السجود : أي بعد أداء الفرائض فسبح بألفاظ الذكر والتسبيح .
واستمع : أي أيها المخاطب إلى ما أقول لك.
يوم ينادي المناد من مكان قريب : أي يوم ينادي إسرافيل من مكان قريب من السماء وهو صخرة بيت المقدس فيقول أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.
يوم يسمعون الصيحة بالحق : أي نفخة إسرافيل الثانية وهي نفخة البعث يعلمون عاقبة تكذيبهم .
ذلك يوم الخروج : أي من القبور.
يوم تشقق الأرض عنهم سراعا : أي يخرجون من قبورهم مسرعين بعد تشقق القبور عنهم .
ذلك حشر علينا يسير : أي ذلك حشر للناس وجمع لهم في موقف الحساب يسير سهل علينا .
نحن أعلم بما يقولون : أي من الكفر والباطل فلا تيأس لذلك سننتقم منهم .
وما أنت عليهم بجبار : أي بحيث تجبرهم على الإيمان والتقوى.
فذكر بالقرآن : أي عظ مرغبا مرهبا بالقرآن فاقرأه على المؤمنين فهم الذين يخافون وعيد الله تعالى ويطمعون في وعده .

معنى الآيات :

بعد ذلك العرض العظيم لأحوال القيامة وأهوالها على كفار قريش المكذبين بالتوحيد والنبوة والبعث ولم يؤمنوا فكانوا بذلك متعرضين للعذاب فأخبر تعالى رسوله أن هلاكهم يسير فكم[1] أهلك تعالى ﴿قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً﴾ أي قوة وأخذاً ولما جاءهم العذاب فروا يبحثون

(١) قوله تعالى : (وكم أهلكنا قبلهم) هذا تعريض بالتهديد للمشركين وتسلية للنبي ﷺ . و(كم) خبرية .

عن مكان يحيصون إليه أي يلجأون فلم يجدوا وهو معنى قوله تعالى ﴿فنقبوا في[1] البلاد هل من محيص[2]﴾؟ وقوله تعالى ﴿إن ذلك[3]﴾ أي الذي ذكرنا من قوله وكم أهلكنا قبلهم من قرن لذكرى أي موعظة يتعظ بها عبد كان له قلب حيٌّ وألقى سمعه يستمع وهو شهيد أي حاضر بكل مشاعره وأحاسيسه. وقوله تعالى ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أولها الأحد وآخرها الجمعة ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي نصب أو تعب، هذا الخبر ردٌّ الله تعالى به على اليهود الذين قالوا أتم الله خلق السموات والأرض في يوم الجمعة واستراح يوم السبت فلذا هم يسبتون أي يستريحون يوم السبت فرد تعالى عليهم بقوله ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي تعب، إذ التعب يلحق العامل من الممارسة والمباشرة لما يقوم بعمله والله تعالى يخلق بكلمة التكوين فلذا لا معنى لأن يصيبه تعب أو نصب أو لغوب وقوله تعالى ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح﴾ أي فاصبر يارسولنا على ما يقوله يهود وغيرهم من الكفر والباطل واستعن على ذلك أي على الصبر وهو صعب بالصلاة والتسبيح قبل طلوع الشمس[4] وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم فشمل هذا الإرشادوالتعليم الإلهي الصلوات الخمس[5]، إذ قبل طلوع الشمس فيه صلاة الصبح وقبل الغروب فيه صلاة الظهر والعصر ومن الليل فيه صلاة المغرب والعشاء، ولنعم العون على الصبر الصلاة، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وقوله وأدبار السجود[6] أي بعد الصلوات الخمس سبح ربك متلبسا بحمده. نحو سبحان الله والحمدلله والله أكبر. وقوله ﴿واستمع[7] يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ أي واستمع أيها الخاطب يوم ينادي اسرافيل من مكان

---

(١) (النقب) الثقب فالتنقيب مأخوذ منه، ومعنى الآية أي: ذللوا وأخضعوا وتصرفوا في الأرض بالحفر والغرس والبناء ونحت الجبال وإقامة السدود والحصون وما إلى ذلك من مظاهر القوة في الأرض ولم يُغن ذلك عنهم من الله شيئا وجاءهم الموت من حيث لا مهرب منه ولا محيص.

(٢) المحيص: مصدر ميمي من: حاص: إذا عدل عن الطريق وهرب فالمحيص: المهرب، والاستفهام إنكاري وهو بمعنى النفي.

(٣) الإشارة إلى كل ما ذكر من الاستدلال والتهديد في الآيات السابقة والذكرى: التذكرة العقلية لمن توفر له ثلاثة شروط : القلب الحيّ وإلقاء السمع للإصغاء وحضور البال.

(٤) في الصحيح عن جرير بن عبدالله البجلي قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ (إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ جرير (وسبح بحمد ربك..)

(٥) وجائز أن يراد بها نوافل الصلاة فيكون الذي قبل طلوع الشمس ركعتا الفجر ولكن ما في التفسير أولى وأصح وأنها الصلوات الخمس إذ السورة مكية ونزلت بعد فرض الصلوات الخمس.

(٦) قرأ نافع: (وإدبار) بكسر الهمزة، وقرأ حفص (وأدبار) بفتحها.

(٧) التعبير بالاستماع فيه معنى التشويق لما يسمع، والمعنى، أقم الصلاة وهي زادك إلى الدار الآخرة وانتظر موعد الجزاء فإنه كائن يوم ينادي المنادي للقيام للجزاء على الصبر والصلاة كما هو على الشرك والعصيان، والآية تحمل التسلية وتدعو إلى الصبر والصلاة.

قريب وهو صخرة بيت المقدس وهو مكان قريب من السماء فيقول المنادي وهو اسرافيل أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء وقوله ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ وهي نفخة إسرافيل الثانية نفخة البعث ﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور ويوم يرى المكذبون عاقبة تكذيبهم. وقوله ﴿يوم تشقق الأرض[1] عنهم سراعاً﴾ أي يخرجون مسرعين ذلك المذكور من تشقق الأرض وخروجهم مسرعين حشر علينا لهم يسير أي سهل لا صعوبة فيه، وقوله ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ فيه تسلية للرسول ﷺ وفيه تهديد لكفار قريش. وقوله ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي بذي قوة وقدرة فائقة تجبرهم بها على الإيمان والاستقامة وعليه فمهمتك ليست الإجبار وأنت عاجز عنه وإنما هي التذكير ﴿فذكر بالقرآن﴾ إذا ﴿من يخاف وعيد﴾ وهم المؤمنون الصادقون والمسلمون الصالحون.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- مشروعية تخويف العصاة والمكذبين بالعذاب الإلهي وقربه وعدم بعده.

٢- للانتفاع بالمواعظ شروط أن يكون السامع ذا قلب حي واعٍ وأن يلقى بسمعه كاملا وأن يكون حاضر الحواس شهيدها.

٣- وجوب الصبر والاستعانةعلى تحقيقه بالصلاة.

٤- مشروعية الذكر والدعاء بعد الصلاة فرادى لا جماعات.

٥- تقرير البعث وتفصيل مبادئه.

٦- المواعظ ينتفع بها أهل القلوب الحية.

(١) قرأ نافع (تشقق) بفتح التاء وتشديد الشين وأصلها تتشقق بتائين فأدغمت التاء الثانية في الشين بعد قلبها شيناً، وقرأ حفص بتخفيف الشين على حذف إحدى التائين.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية

وآياتها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات :

والذاريات ذروا : أي الرياح تذروا التراب وغيره ذروا.

فالحاملات وقرا : أي السحب تحمل الماء.

فالجاريات يُسراً : أي السفن تجري على سطح الماء بسهولة.

فالمقسمات أمرا : أي الملائكة تقسم بأمر ربها الأرزاق والأمطار وغيرها بين العباد.

إن ما توعدون لصادق : أي إن ما وعدكم به ربكم لصادق سواء كان خيراً أو شراً.

وإن الدين لواقع : أي وأن الجزاء بعد الحساب لواقع لا محالة.

والسماء ذات الحبك : أي ذات الطرق كالطرق التي تكون على الرمل والحبك جمعُ حبيكة.

إنكم لفي قول مختلف : أي يا أهل مكة لفي قول مختلف أي في شأن القرآن والنبي ﷺ فمنهم من يقول القرآن سحر وشعر وكهانة ومنهم من يقول النبي كاذب أو ساحر أو شاعر.

يؤفك عنه من أفك	: أي يصرف عن النبي والقرآن من صُرف.
قتل الخراصون	: أي لعن الكذابون الذين يقولون بالخرص والكذب.
الذين هم في غمرة ساهون	: أي في غمرة جهل تغمرهم ساهون أي غافلون عن أمر الآخرة.
يسألون أيان يوم الدين	: أي يسألون النبي ﷺ سؤال استهزاء متى يوم القيامة؟ وجوابهم يوم هم على النار يفتنون أي يعذبون فيها.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿والذاريات﴾[1] هذا شروع في قسم ضخم أقسم الله تعالى به وهو الذاريات ذروا أي الرياح تذروا التراب وغيره من الأشياء الخفيفة ﴿فالحاملات وقراً﴾[2] أي السحب تحمل الماء ﴿فالجاريات[3] يسراً﴾ أي السفن تجري على سطح الماء ﴿فالمقسمات أمراً﴾ أي الملائكة تقسم الأرزاق والأمطار وغيرها بأمر ربها كل هذا قسم أقسم الله به وجوابه ﴿إنما توعدون﴾ أيها الناس من البعث والجزاء بالنعيم المقيم أو بعذاب الجحيم لصادق وإن الدين أي الجزاء العادل لواقع أي كائن لا محالة. وقوله ﴿والسماء ذات الحبك﴾[4] هذا قسم آخر أي ذات الطرق كالتي على الرمل جمع حبيكة بمعنى طريقة ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ هذا جواب القسم فمنكم من يقول محمد ساحر ومنكم من يقول كاذب أو كاهن. ومنكم من يقول في القرآن سحر وشعر كهانة وقوله تعالى ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف عن القرآن ومن نزل عليه من أفك أي صرف بقضاء الله وقدره. وقوله تعالى: ﴿قتل الخراصون﴾ أي لعن الكذابون الذين يقولون بالخرص والكذب والظن الذين هم في غمرة جهل تغمرهم ساهون أي غافلون عن أمر الآخرة وما لهم فيه من عذاب لو شاهدوه ما ذاقوا طعاماً ولا شراباً لذيذاً.

---

(١) هنا ذكر القرطبي موعظة عجباً وهي أن رجلاً يقال له: صبيغ بلغ عمر عنه أنه يسأل عن تفسير مشكل القرآن فقال: اللهم امكني منه فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن فلما فرغ قام إليه الرجل وقال: يا أمير المؤمنين ما الذاريات ذروا؟ فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده ثم قال: ألبسوه ثيابه واجعلوه على قتب وابلغوا به أهله ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صبيغاً طلب العلم فاخطأ فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم. وأخرى وهو أن ابن الكواء سأل علياً رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين ما (الذاريات) قال: ويلك سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً.

(٢) (فالحاملات وقرا) السحب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر: أي الحمل الثقيل.

(٣) جائز أن يراد بـ(الجاريات) السفن، وأن يراد بها الرياح تجري بالسحب بعد تراكمها، واليسر: اللين والهون، أي الجاريات جرياناً لينا هيناً شأن السير بالشيء الثقيل كما قال الأعشى.

كأن مشيتها من بيت جارتها مشي السحابة لا ريث ولا عجل

(٤) (الحبك) بفتح فسكون: إجادة النسج وإتقان الصنع، وجائز أن يكون المراد بالحبك حبك السماء أي: نجومها لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب. وعن الحسن أنها طرائق المجرة أو طرائق السحاب، والكل جائز.

وقوله تعالى يسألون أيّان يوم الدين أي متى قيام الساعة ومجيئها وهم في هذا مستهزئون ساخرون وجوابهم في قوله تعالى يوم هم على النار يفتنون أي يعذبون ويقال لهم ذوقوا فتنكم أي عذابكم هذا الذي كنتم به تستعجلون أي تطالبون به رسولنا بتعجيله لكم استخفافا وتكذيبا منكم.

هداية الآيات:

من هداية الآيات:

١- تقرير عقيدة البعث والجزاء حيث أقسم تعالى على ذلك.

٢- تقرير عقيدة القضاء والقدر في قوله يؤفك عنه من أفك.

٣- لعن الله الخراصين الذين يقولون بالخرص والكذب ويسألون استهزاء وسخرية لا طلبا للعلم والمعرفة للعمل.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

شرح الكلمات:

إن المتقين في جنات وعيون[1] : أي إن الذين اتقوا ربهم في بساتين وعيون تجري خلال تلك البساتين والقصور التي فيها كقوله تجري من تحتها الأنهار.

آخذين ما آتاهم ربهم : أي آخذين ما أعطاهم ربهم من الثواب.

---

(١) لما ذكر تعالى مآل الكافرين وهو أنهم على النار يفتنون أي: يعذبون كما قال الشاعر:

كل امرىء من عباد الله مضطهد — ببطن مكة مقهور ومفتون

ذكر مآل المؤمنين المتقين فقال: (إن المتقين) فذكر ما هم فيه من النعيم المقيم.

إنهم كانوا قبل ذلك محسنين : أي كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين في الدنيا أي في عبادة ربهم وإلى عباده.

كانوا قليلا من الليل ما يهجعون : أي كانوا في الدنيا يحيون الليل ولا ينامون فيه إلا قليلا.

وبالأسحار هم يستغفرون : أي وفي وقت السحور وهو السدس الأخير من الليل يستغفرون يقولون ربنا اغفر لنا.

وفي أموالهم حق للسائل والمحروم: أي للذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لتعففه وهذا الحق أوجبوه على أنفسهم زيادة على الزكاة الواجبة.

وفي الأرض آيات للموقنين : أي من الجبال والأنهار والأشجار والبحار والإنسان والحيوان دلالات على قدرة الله مقتضية للبعث والموجبة للتوحيد للموقنين أما غير المؤمنين فلا يرون شيئا.

وفي أنفسكم أفلا تبصرون : أي آيات من الخلق والتركيب والاسماع والابصار والتعقل والتحرك أفلا تبصرون ذلك فتستدلون به على وجود الله وعلمه وقدرته.

وفي السماء رزقكم وما توعدون : أي من الأمطار التي بها الزرع والنبات وسائر الأقوات وما توعدون من ثواب وعقاب إن كل ذلك عند الله في السماء مكتوب في اللوح المحفوظ.

فورب السماء والأرض إنه لحق : إنه لحق أي ما توعدون لحق ثابت.

مثل ما أنكم تنطقون : أي إن البعث لحق مثل نطقكم فهل يشك أحد في نطقه إذا نطق والجواب لا يشك فكذلك ما توعدون من ثواب وعقاب.

معنى الآيات:

ما زال السياق الكريم في تقرير عقيدة البعث والجزاء التي كذب بها المشركون في مكة فقال تعالى ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء يوم القيامة في بساتين وعيون تجري في تلك البساتين وقوله ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ أي ما أعطاهم ربهم من ثواب هو نعيم مقيم في دار السلام. ثم ذكر تعالى مقتضيات هذا العطاء العظيم والثواب الجزيل فقال ﴿إنهم كانوا قبل﴾ دخولهم الجنة ﴿محسنين﴾ في الدنيا فأحسنوا نياتهم وأعمالهم اخلصوها لله ربهم وأتوا بها وفق ما ارتضاه وشرعه لعباده بلا زيادة ولا نقصان كما أحسنوا إلى عباده ولم يسيئوا إليهم بقول ولا عمل هذا موجب وآخر أنهم ﴿كانوا قليلاً من الليل ما

يهجعون﴾[1] أي لا ينامون من الليل إلا قليلاً إذ أكثر الليل يقضونه في الصلاة وهو التهجد وقيام الليل وبالأسحار أي وفي السدس الأخير من الليل هم يستغفرون أي يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار وثالث ﴿وفي أموالهم حق للسائل﴾ والمحروم أي وزيادة على الزكاة المفروضة في كل مال بلغ النصاب فإنهم أوجبوا على أنفسهم في أموالهم حقا يبذلونه للسائل الذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل لحيائه وعفته. هذه موجبات العطاء الكريم الذي أعطاهم ربهم من النعيم المقيم في جنات وعيون. وقوله تعالى ﴿وفي الأرض[2] آيات للموقنين﴾ أي وفي ما خلق في الأرض من مخلوقات من جبال وأنهار وزروع وضروع وأنواع الثمار، وإنسان وحيوان آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله وعلمه وحكمته ورحمته وكلها موجبة له التوحيد ومقررة لقدرته على البعث الآخر والجزاء وكون هذه الآيات للموقنين مبني على أن الموقنين ذووا بصائر وإدراك لما يشاهدون في الكون فكلما نظروا إلى آية في الكون ازداد إيمانهم وقوى فبلغوا اليقين فيه فأصبحوا أكثر من غيرهم في الاهتداء والانتفاع بكل ما يسمعون ويشاهدون. وقوله تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أي وفي أنفسكم[3] أيها الناس من الدلائل والبراهين المتمثلة في خلق الإنسان واطواره التي يمر بها من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى طفل إلى شاب فكهل وفي إدراكه وسمعه وبصره ونطقه إنها آيات أخرى دالة على وجود الله وتوحيده وقدرته على البعث والجزاء وقوله ﴿أفلا تبصرون﴾ توبيخ لأهل الغفلة والاعراض عن التفكر والنظر إذ لو نظروا بأبصارهم متفكرين ببصائرهم لاهتدوا إلى الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء. وقوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون أي[4] يخبر تعالى عباده أن رزقهم في السماء يريد تدبير الأمر في السماء والأمطار التي هي سبب كل الثمار والحبوب وسائر الخضر والفواكه التي هي غذاء الإنسان في السماء وقوله وما توعدون من خير وشر من رحمة وعذاب الكل في السماء إذ الأمر لله وهو يحكم بالرحمة والعذاب على من يشاء وكتاب المقادير الذي كتب فيه كل شيء هو في السماء. وقوله تعالى ﴿فورب السماء والأرض

---

(١) الهجوع: النوم ليلا، والتهجاع: النومة الخفيفة قال الشاعر:

قد حصت البيضة رأسي فما   أطعم نوماً غير تهجاع

والفعل هجع يهجع هجوعاً، و(ما) زائدة لتقوية الكلام اي: كانوا ينامون قليلا من الليل، والجملة: (وكانوا قليلًا) الخ بدل من جملة: (كانوا قبل ذلك محسنين) بدل بعض من كل.

(٢) هذا متصل بالقسم في قوله: (والذاريات) إنه بعد أن حقق عقيدة البعث بالإقسام عليها عطف شواهد من الأدلة على ذلك.

(٣) مما هو آية في النفس أن المرء يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ولو شرب لبناً محضاً لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية في النفس.

(٤) يروى أن الحسن رحمه الله تعالى كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم.

إنه لحق[1] مثل ما أنكم تنطقون[2] هذا قسم منه تعالى أقسم فيه بنفسه على أن البعث والجزاء يوم القيامة حق ثابت واجب الوقوع كائن لا محالة إذا كنا لا نشك في نطقنا إذا نطقنا أن ما نقوله ونسمعه لا يمكن أن يكون غير ما نطقنا به وسمعناه فكذلك البعث الآخر واقع لا محالة.

هداية الآيات :

من هداية الآيات :

١- بيان ما للمتقين من نعيم مقيم في الدار الآخرة.

٢- بيان صفات المتقين من التهجد بالليل والاستغفار في آخره والانفاق في سبيل الله.

٣- بيان أن في الأرض كما في الأنفس آيات أي دلائل وعلامات على قدرة الله على البعث والجزاء.

٤- بيان أن في السماء رزق العباد[3] فلا يطلب إلا من الله تعالى وأن ما نُوعَدُه من خير وشر أمره في السماء ومنها ينزل بأمره تعالى فليكن طلبنا الخير من الله دائما وتعوذنا من الشر بالله وحده.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

---

(١) (ما) في ﴿مثل ما أنتم تنطقون﴾ مزيدة للتوكيد، والمضارع ﴿تنطقون﴾ جيء به بدلاً عن المصدر نطقكم لإفادته التشبيه بنطقهم المتجدد المحسوس لهم وتقدير الكلام أن ما توعدونه من البعث والجزاء لحق مثل نطقكم الذي لاتنكرونه إذ لا يوجد من ينكر نطقه أبداً.

(١) (ما) في (مثل ما أنكم تنطقون) مزيدة للتوكيد، والمضارع (تنطقون) جيء به بدلا عن المصدر نطقكم الذي لا تنكرونه إذ لا يوجد من ينكر نطقه أبداً.

(٢) قيل: خص النطق من بين سائر الحواس: لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، والنطق سليم من ذلك.

(٣) ذكر القرطبي عند تفسير هذه الآية قصة مأثورة عن الأصمعي خلاصتها: أن أعرابيا قال له: اقرأ عليّ من كلام الرحمن شيئا فقرأ عليه: (وفي السماء رزقكم وما توعدون) ففهمها الأعرابي على حقيقتها فكسر قوسه ونحر بعيره فتصدق به وتاب إلى ربه ولقيه بعد سنة فطلب منه أن يسمعه من كلام الرحمن فقرأ عليه فورب السماء والأرض إنه لحق..) الآية فأخذ الأعرابي رداءه وهو يقول: من يغضب الرحمن. وما زال يرددها حتى مات.

شرح الكلمات:

هل أتاك حديث : أي قد أتاك يا نبيّنا حديث أي كلام.

ضيف ابراهيم المكرمين : أي جبريل وميكائيل وإسرافيل أكرمهم إبراهيم الخليل.

وقالوا سلاما : أي نسلم عليك سلاما.

قال سلام قوم منكرون : أي عليكم سلام أنتم قوم منكرون أي غير معروفين.

فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين : أي عدل ومال إلى أهله فجاء بعجل سمين حنيذ.

فقال ألا تأكلون : أي فأمسكوا عن الأكل فقال لهم ألا تأكلون.

فأوجس منهم خيفة : أي فأضمر في نفسه خوفا منهم.

بغلام عليم : أي بولد يكون ذا علم كبير غزير.

فاقبلت امرأته في صرَّة : أي في رنّة وصيحة.

فصكت وجهها : أي لطمت وجهها أي ضربت بأصابعها جبينها متعجبة.

وقالت عجوز عقيم : أي كبيرة السن وعقيم لم يولد لها قط.

قالوا كذلك قال ربك : أي قالت الملائكة لها كالذي قلنا لك قال ربك.

إنه هو الحكيم العليم : أي انه هو الحكيم في تدبيره وتصريف شؤون عباده. العليم بما يصلح للعبد ومالا يصلح فليفوض الأمر إليه.

معنى الآيات:

قوله تعالى ﴿هل أتاك حديث[1] ضيف إبراهيم المكرمين[2]﴾ هذا الحديث يشتمل على موجز قصة قد ذكرت في سورة هودوالحجر والمقصود منه تقرير نبوة محمد ﷺ إن مثل هذا القصص لا يتم لأميٍّ لا يقرأ ولا يكتب إلا من طريق الوحي كما أنه يحمل في نهايته التهديد بالوعيد لمشركي قريش المصرين على الكفر والتكذيب والإجرام الكبير إذ في نهاية القصة يسأل ابراهيم الملائكة قائلا فما خطبكم أيها المرسلون فيجيبون قائلين إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين أي لتدميرهم وإهلاكهم من أجل إجرامهم ،وقريش في هذا الوقت مجرمة مستحقة للعذاب كما استحقه إخوان لوط. فقوله تعالى في خطاب رسوله هل أتاك حديث ضيف إبراهيم

---

(١) هذا الكلام مستأنف ابتدائي سيق لتسلية الرسول ﷺ وتقرير نبوته وإنذار قومه المكذبين المصرين على الشرك والظلم، ولفظ الضيف، يطلق على الواحد وأكثر وافتتاح الكلام بهل للتفخيم للحدث الذي يخبر عنه والتهويل من شأنه.

(٢) قال فيهم المكرمين: لخدمة إبراهيم إياهم وإكرامه لهم بتقديم العجل حنيذ، وقيل هم مكرمون من قبل الله تعالى.

الخليل وهم ملائكة في صورة رجال من بينهم[1] جبريل وميكائيل وإسرافيل إذ دخلوا عليه أي على ابراهيم وهو في منزله فسلموا عليه[2] فرد السلام ثم قال أنتم قوم منكرون أي لا نعرفكم بمعنى أنكم غرباء لستم من أهل هذا البلد فلذا سارع في إكرامهم فراغ إلى أهله أي عدل ومال إلى أهله فعمد إلى عجل سمين من أبقاره وكان ماله يومئذ البقر فشواه بعد ذبحه وسلخه وتنظيفه. فقربه إليهم وكأنهم أمسكوا عن تناوله فعرض عليهم الأكل عرضا بقوله ألا تأكلون فقالوا إنا لا نأكل طعاما إلا بحقه. فقال إذاً كلوه بحقه، فقالوا وما حقه؟ قال أن تذكروا اسم الله في أوله وتحمدوا الله في آخره أي تقولون بسم الله في البدء والحمـد لله في الختم فالتفت جبريل إلى ميكائيل وقال له حقّ للرجل أن يتخذه ربه خليلا ولما لم يأكلوا أوجس منهم خيفة أي خوفا أي شعر بالخوف في نفسه منهم لعدم أكلهم لأن العادة البشرية وهي مستمرة إلى اليوم إذا أراد المرء بأخيه سوءاً لا يسلم عليه ولا يرد عليه السلام، ولا يأكل طعامه هذا حكم غالبي وليس عاما. قالوا لا تخف وبشروه بغلام وأعلموه أنهم مرسلون من ربه إلى قوم لوط لإهلاكهم من أجل اجرامهم وبشروه بغلام يولد له ويكبر ويولد له فالأول اسحق والثاني يعقوب كما جاء في سورة هود فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحق يعقوب وقوله ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾[3] أخذت في رنّة لما سمعت البشرى فصكت أي لطمت وجهها بأصابع يدها متعجبة وهي تقول أألد وأنا عجوز[4] وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيء عجيب إذ كان عمرها تجاوز التسعين وعمر ابراهيم تجاوز المئة وكانت عقيما لا تلد قط فلذا قالت عجوز عقيم[5] كيف ألد يا للعجب؟ فأجابها الملائكة قائلين كذلك أي هكذا قال ربك فاقبلي البشرى واحمديه واشكريه. إنه تعالى هو الحكيم في تصرفاته في شؤون عباده العليم بما يصلح لهم وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه.

---

(١) قيل إنهم كانوا تسعة وسمى منهم غير الثلاثة رفائيل عليه السلام.

(٢) في الآية مشروعية السلام إلقاء ورداً إلا أن الإلقاء سنة والرد واجب لآية النساء: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها).

(٣) الصرة: الصيحة والضجة، والصرة، الجماعة، والصرة: الشدة من كرب وغيره قال الشاعر:

فألحقه بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل

الهاديات: أوائل بقر الوحش وجواحرها: متخلفاتها ولم تزيل لم تتفرق والشاهد في الصرة هنا فإنها بمعنى الضجة والجماعة والشدة. وهو يمدح فرسه الذي ألحقه بأوائل بقر الوحش الذي يصيد.

(٤) نص آية هود: (قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب).

(٥) أي: كيف ألد وأنا عجوز عقيم فـ(عجوز) خبر، و(عقيم) بدل منه والمبتدا محذوف أي: أنا والعجوز يشترك فيه المذكر والمؤنث يقال رجل عجوز وامرأة عجوز فهو فعول بمعنى فاعل مشتق من العجز والعقيم كذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث وهو فعيل بمعنى مفعول مأخوذ من عقمها الله: إذا خلقها لم تحمل بجنين، وكانت سارة لم تحمل قط.

هداية الآيات :

من هداية الآيات :

١ـ تقرير النبوة المحمدية .

٢ـ فضيلة ابراهيم أبي الأنبياء وإمام الموحدين .

٣ـ وجوب إكرام الضيف .

٤ـ الخوف الفطري عند وجود أسبابه لا يقدح في العقيدة ولا يعد شركا .